الخيال الشعبي

الانتصار بالحدوته

طارق يوسف

الخيال الشعبي.. الانتصار بالحدوتة

طارق يوسف

يناير 2023

جميع حقوق الطبع محفوظة ـ يحظر نشر أي جزء من مادة الكتاب دون موافقة خطية من الكاتب.

رقم الإيداع 7200 / 2023 م

الترقيم الدولي 6 – 5034 – 94 – 977 - 978

الخيال الشعبي..

الانتصار بالحدوتة

تقديم: د. أحمد الخميسي

طارق يوسف

الخيال الشعبي.. الانتصار بالحدوتة

كلمة قبل القراءة

د. أحمد الخميسي

لا أحب عامة أن يقوم كاتب بتقديم كتاب، أشعر أن في ذلك اقتحاما لبكارة التلقي لدي القارئ، لكن أحيانا تجد أنك مأخوذ بالعمل، فتكتب عنه، ليس مقدمة، ولكن مجرد أن تتقاسم مع القارئ ذلك الاعجاب. في هذا الكتاب الجميل "الخيال الشعبي.. الانتصار بالحدوته"، تتجدد أمامنا صورة الشاعر الغنائي طارق يوسف الذي كتب أعذب الأغنيات، ثم تتجدد صورة طارق يوسف المؤلف الدرامي الذي أغنى الاذاعة والمسرح بالعديد من الأعمال، فنرى أمامنا جانبا آخر من الكاتب الذي طالما استمد من قلبه وليس قلمه كل حرف كتبه. هذه المرة يظهر لنا المؤلف عشقه لتاريخ مصر، وليس أي مصر، لكن مصر التي تكتب التاريخ بالخيال، والتي تنتصر على النصوص الرسمية بنصوص شعبية، وما تعقده من هالات المحبة حول رؤوس أبطالها. إنه تاريخ عكس

التاريخ، يرصده طارق يوسف المشبع بحب بلاده منذ أن شارك في الحركة الطلابية والاجتماعية مبكرا، ودفع من سنوات عمره ثمن تلك المحبة. يطوف بنا الكاتب في تاريخ الشخصيات كما سجلتها الأوراق الرسمية، تاريخ الطغاة، وتاريخ البطولات الشعبية، وكيف انتصرت المخيلة الشعبية على الكذب بالخيال وبالمحبة التي طوقت بها رجالها، من أمثال طومان باي، والشاطر على الزيبق، والظاهر بيبرس، بل وحتى الشاعر الشعبي ابن عروس، لقد قام الخيال بحماية التاريخ وهو يضفي على أبطاله كل تلك الخصال والصفات ليرفعهم عاليا بعيدا عن حبر المستبدين وأوراقهم. سنقرأ في هذا الكتاب الممتع أيضا صفحات من حياة المستبدين، مثل الحجاج بن يوسف الثقفي الذي اشتهر بأنه سفاح وسفاك دماء، وغيره من الطغاة، وقد تخير طارق يوسف أن يعرض لكل ذلك من خلال المقارنة بين تاريخ تلك الشخصيات الرسمي، وسيرة تلك الشخصيات الشعبية. أخيرا يجدر القول أن لغة الكتاب الميسرة التي يتمتع بها شاعر وأديب قد جعلت من قراءة العمل متعة خالصة. تحية خالصة للمبدع طارق يوسف، الذي لا يكف عن العطاء، متجددا، بصور مختلفة، يحكمه في كل ذلك

انتماؤه الى رؤى الشعب وتاريخه الصادق، وخياله صانع المعجزات. هنيئا للقارئ بهذا الكتاب، وهنيئا للكاتب بما آمن واعتقد، وبوفائه لجذوره وأحلامه التي تلهم قلمه حتى لو تكبد الكثير: شاعرا ومؤلفا ومؤرخا.

د. أحمد الخميسي

القسم الاول

بين التأريخ والخيال الشعبي

مقدمة القسم الاول

هذا الكتاب يحوي بين دفتيه دراسة تمهيدية (في طور الاكتمال) لتناول سير الشخصيات التاريخية، التي مثلت لدى الوجدان الشعبي نماذج لأبطال نسج حولهم القاص الشعبي سيرا تمجد معان البطولة والعدل والفروسية، وتبرز القيم التي يسعى العامة لتبنيها والتأكيد عليها..

وعلى الجانب الاخر نتناول سير شخصيات تاريخية رفضهم العامة، وألصقوا بهم كل ما هو مشين، من ظلم وجور وفساد، فنسجوا حولهم قصصا ينتصرون عبرها للعامة والرعية، ويدينون القيم التي تمثل فترة حكمهم..

كل هذا من خلال الدراسة المقارنة بين التأريخ الرسمي، والسيرة الشعبية لكل شخصية تاريخية على حدة..

مبينين ـ في كل الأحوال ـ الأسباب الكامنة وراء تبني الوجدان الشعبي لهذه الشخصية او تلك..

وسنتبنى منهجا لهذا البحث (الكتاب) المزمع استكمالها، يقوم على توسيع ما ورد هنا والخاص بسير كل من: علي الزبيق، وشجر الد، وهارون

الرشيد.. ثم نتطرق الى دراسة السير ومقارنتها بما جاء بالتأريخ الرسمي، وعقد المقارنات، لكل من:

سيرة وتأريخ الظاهر بيبرس

سيرة وتاريخ ابن طولون

ندرس أيضا بعض السير التي لم يؤرخ لها رسميا لكن نسج لها الخيال اشعبي سيرا

سيرة الاميرة ذات الهمة

سيرة حمزة البهلوان

قديمًا كانت السيرة التي يرويها القاص الشعبي في مقاهي القاهرة العتيقة، ليست مجرد قصة مسلية يتسلى بسماعها جمهور السميعة ــ سواء كانت مغناة على الربابة، أو في صورة حدوتة سردية ــ بل هي جزء من التاريخ، فالناس (الرعية)، يكتبون بمخيلتهم تاريخهم الخاص عن أحداث زمانهم وحكامهم، لتبجيلهم إن كانوا صالحين.. أما إن كانوا قد ظلموا وجاروا، وانتقصوا من حقوق الناس، ولم يراعوا حقوق الرعية،

فالقاص الشعبي لهم بالمرصاد، ينتقم منهم حكيًا أو على الربابة، لينتصر على الظالمين بالحواديت. فلا بأس من الانتصار في الحكايات، ما دام النـاس لا يقدرون على مواجهة الظالم في الواقع..

فصحائف التاريخ لا تذكر كل شيء.. وكتب التـاريخ لا تحوي بين دفتيها كل ما حـدث.. فـبعض أحـداث التاريخ، تسقط سهوا.. أو عمـدا.. وبعـض الأحـداث التي لم تحـدث قـط، تضـاف الـى التـاريخ، يخطهـا النــاقلون ويضــيفونها.. إمــا ســهوا.. أو عمــدا.. أو تكتبها مخيلة الناس.. الرعية.. إما مدحا.. أو ذما .

والأمثلة على ذلك كثيرة:

فلهارون الرشـيد، تـاريخ بـين دفتـي كتـب التـاريخ الرســمي، كتبــه المؤرخــون، ونقلــه النــاقلون.. ولهـارون الرشـيد تـاريخ آخـر يتـردد علـى ألسـنة العامة فيما هو أقرب الى القص والحكـي، ومـن لا يصدقنا، عليه ان يفتح كتاب ألف ليلة وليلة، ليقـرأ ويعاين بنفسـه تاريخا وحكايات عن هارون الرشـيد لم ترد بكتب التاريخ ولم تذكرها صحائفه..

وللظاهر بيبرس، تاريخ رسـمي، خطه المؤرخـون.. وآخر شعبي، تحويه سـيرة الظاهر بيبرس..

ولأحمد بـن طولـون، تاريخـان.. أحـدهما رسـمي، والآخر شعبي..

ولطومان باي، سيرة، وتاريخ ايضا..

ولشجرة الدر، سيرة تتـردد علـى ألسـنة العامـة، وتاريخ دونه المؤرخون..

الأمثلـة أكثـر مـن أن تحصـى.. فالنـاس.. الرعيـة.. يكتبون بمخيلتهم تاريخهم الخـاص عـن حكـامهم، لتبجيلهم ان كانوا صالحين.. أما ان كانوا قد ظلموا وجاروا، فالرعية تنتصر وتنتقم بالحدوتة..

كانت هذه المقدمة ضرورية قبل ان نبدأ..

الانتصار بالحدوتة

الشاطر في الأدب الشعبي، متمرد صاحب قضية، لم يجد سبيلاً مشروعًا يسلكه لمنع الفساد ووقف الاستبداد، ومن ثم فليس أمامه ــ من وجهة نظر القاص الشعبي ــ إلا الشطارة لتحقيق الانتصار على الحاكم الظالم، فالانتصار في الحدوتة أو الحكاية الشعبية، شكل من أشكال التنفيس عما في صدور العامة، باستخدام سلاح السخرية، والالتجاء إلى الرمز، ومجازاة الحاكم المستبد بالألاعيب، دون اللجوء إلى السحر أو القوى الغيبية، والشاطر في الحدوتة الشعبية هو من ينوب عن العامة في اخذ ثأرهم من الحاكم الظالم، ودور الشاطر فَتْح طريق الحلم بالخلاص من الظلم والاستبداد والفساد، والأمل في المستقبل، فلا بأس من الانتصار في الحكايات ما دام الناس لا يقدرون على مواجهة الظالم في الواقع المعاش..

خلط الأزمنة والأمكنة

من هنا يأتي سبب لجوء القاص الشعبي ــ في كثير من السرديات الشعبية ــ إلى تداخل التواريخ، وخلط الأزمنة والأمكنة، التي تكتنف الحواديت الشعبية..

فالقاص الشعبي وهو يسرد الحدوتة، يأخذ الأحداث ويرويها في زمن مختلف عن الزمن الذي يعيش فيه، أو الوقت الذي حدثت فيه الحدوتة المروية، ذلك يفتح مساحة من حرية الحركة، فعندما يريد السارد الشعبي السخرية من السلطان مثلاً، يستدعي اسم سلطان عاش في زمن مختلف عن زمن الراوي، ويتبع نفس النسق بالنسبة لمكان الأحداث، فالقاص الشعبي يستدعي لحدوتته مكانًا بعيدًا عن الأرض التي يعيش فوقها لحظة سرد الحكاية أو الحدوتة..

وهنا فعندما يسخر من السلطان أو مقدم الدرك، فلا يمكن مؤاخذته، لأنه يذكر اسم سلطان ومقدم درك آخرين غير الذين يعيشون في زمنه، أو مكان إقامته.. وبهذه الطريقة يتمكن من الهروب من المساءلة، ويستطيع التملص من المحاسبة، وغضب الحكام ــ أيًا كانت صفتهم ــ فإذا أخذنا في

الاعتبار أن المساءلة والمحاسبة في قديم الزمان (زمن القاص الشعبي)، لم تكن تقف عند حد السجن أو الغرامة كأيامنا الحالية، بل كانت تتعدى ذلك لتصل إلى حد قطع الرقبة أو التوسيط (القطع نصفين من الوسط).

سيرة أشطر الشطار علي الزيبق

تعد سيرة "الشاطر علي الزيبق المصري" خير مثال يمكن من خلالها التدليل على ذلك، حيث يعري الزيبق الحكام في البلاد، عبر ملاعيبه وحيله، بلا قدرات خارقة، أو استعانة بساحر أو جني.

فإذا استعرضنا الشخصيات التي تحفل بها سيرة علي الزيبق ـ سواء في ألف ليلة وليلة، أو في سيرة "أشطر الشطار علي الزيبق المصري" في القصص الشعبي ـ نجد أن معظم هذه الشخصيات ـ إن لم يكن كلهم ـ كانوا شخصيات لها تواجد تاريخي، عاشوا في أزمان مختلفة، وذُكروا في كتب التاريخ، عند ابن إياس، والمسعودي، وابن الأثير، وغيرهم، إلى آخر مؤرخي القرون الوسطى العربية..

"أحمد الدنف"، و"علي الزيبق"، و"صلاح الكلبي"، و"دليلة المحتالة"، و"زينب النصابة"، والخليفة "هارون الرشيد" في بغداد، كل هذه الشخصيات كانت شخصيات ذات تواجد تاريخي..

فخليفة بغداد في سيرة "احمد الدنف ودليلة المحتالة وعلي الزيبق" ـ التي تحتل الليالي من

الليلة 708، حتى الليلة 719 ـ هو هارون الرشيد الخليفة الخامس في الدولة العباسية الذي حكم من عام 170 هـ إلى عام 193 هـ، أي انه حكم في القرن الثاني الهجري..

ودليلة المحتالة كانت موجودة في التاريخ، وعاشت في أواخر القرن الثالث الهجري.. يقول الدكتور رجب النجار في مؤلفه الموسوعي (حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي): "قد عثرت ـ فيما عثرت ـ على نص يشير إلى وجود دليلة المحتالة، أو دالة المحتالة، كما يسميها المسعودي، فقد أتى ذكرها عند المسعودي في كتاب "آخر الزمان"، حيث ذكر في حوادث سنة 282 هـ، أيام الخليفة المعتضد، حين كان يتحدث عن بعض أخبار الشطار المحتالين في بغداد".. إذن فدالة المحتالة عاشت في القرن الثالث الهجري..

أما علي الزيبق فعاش في القرن الخامس الهجري، فقد جاء ذكره في الحديث عن انتفاضة سنة 444 هـ، "يشير ابن الأثير إلى أن الزيبق قد تمكن من الاستيلاء على السلطة في بغداد، وجباية اسواقها... فقد ذكر في حوادث سنة 444 هـ.، حيث يقول: "وفيها حدثت فتنة بين السنة

والشـــيعة فـــي بغـــداد وامتنـــع الضـــبط، وانتشـــر العيـــارون، وتســـلطوا (أي تولـــوا الســـلطة) وجبـــوا الأسـواق، وأخـذوا مـا كـان يأخـذه أربـاب الأعمـال، وكان مقدمهم الطقطقي والزيبق". (الدكتور رجـب النجار، المصدر السـابق) ..

وبالنســبة لأحمــد الــدنف فهــو شــخص لــه وجــود تاريخي أيضًا، عاش في القـرن التاسـع الهجـري.. فحَسَـب الدكتور النجار: فقد كان احمد الـدنف مـن كبـار الشـطار، وأن لـه حكايـات فـي فـن السـرقة يطول شرحها، في حوادث ثورة المماليك الجلبـان سـنة 891 هـ على السلطان، فاضطربت الأحـوال، وغلقت الأسواق والدكاكين" ـ على حد تعبير ابن إياس ـ بل لقد بلغ عن شـهرة احمـد الـدنف بـين فتوات مصر حـدًا مـن الشـهرة جعـل بعـض فتـوات الحسينية حتى وقت قريب يتسمون باسمه، فقد كـان هنـاك واحـد مـن كبـار الفتـوات فـي حـي الحسينية، ضـئيل الحجـم، رهيـب السـمعة، كـان يتســمى باســم "احمــد الــدنف" ولا يناديــه رجالــه وســـكان الحـــي إلا بهـــذا الاســـم ، وذلـــك فـــي الأربعينات من هذا القـرن. (الـدكتور رجـب النجـار، المصدر السـابق) ..

فالقاص الشعبي جمع آحادًا عاشوا في أزمنة مختلفة، وأمكنة مختلفة، وضمنهم في سيرة واحدة..

فأبطال السيرة عاش كل منهم في زمن مختلف عن الآخر (اتسع الزمان بينهم لثمانمائة سنة هجرية، من القرن الثاني الهجري إلى القرن التاسع الهجري)، وتراوحت أماكن تواجدهم بين القاهرة وبغداد، لكن القاص الشعبي ــ خلطًا للأوراق وتهربًا من المحاسبة والمساءلة ــ جمع كل هذه الأشتات في مكان وزمان واحد، ونسج السيرة أو الحدوتة على نحو يمكنه من الانتصار على من جاروا وأفسدوا وظلموا، دون تمكن الحكام من محاسبته.

"شجر الدر"... امرأة على عرش مصر

في عام 647 هـ/ 1249 م، نزل فرسان وعساكر الحملة الصليبية السابعة من المراكب على بر دمياط ونصبوا خيمة الملك لويس التاسع. وانسحبت العربات التي كان وضعها السلطان الصالح نجم الدين أيوب في دمياط للدفاع عنها، فاحتلها الصليبيون بسهولة وهي خالية من سكانها الذين تركوها عندما رأوا هروب العربات. فحزن الملك الصالح، وأعدم عددًا من راكبي العربات بسبب جبنهم وخروجهم عن أوامره. ورغم مرض السلطان انتقل من القاهرة إلى مكان آمن في المنصورة. (السلوك للمقريزي)

وفي ليلة النصف من شعبان، توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب في لحظة حرجة جدًا من تاريخ البلاد، بعد أن حكم مصر 10 سنوات.

"شجر الدر" في التاريخ الرسمي

كما هو معروف أخفت شجر الدر خبر موت السلطان، حتى لا تتأثر معنويات المصريين، وأعلنت ان السلطان مريض ولا يستطيع مقابلة أحد. وتعمدت إدخال الطعام للغرفة التي كان من المفترض أن يكون نائمًا بها حتى لا يشك أحد. وظلت المعارك سجالاً بين الفرنجة من جانب والمصريين من جانب آخر، حتى انتهت بهزيمة الحملة الصليبية، وأسر الملك لويس التاسع بدار ابن لقمان بالمنصورة.

ويجب أن نشير هنا أن المماليك البحرية هم من لعبوا الدور الأكبر في هزيمة الفرنجة وأسر لويس التاسع، وليس المماليك الأيوبيين.

أرسلت شجر الدر رسولاً إلى توران شاه، (ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب) الذي كان موجودًا بحصن كيفا بالشام، تستدعيه ليحكم مصر بدل أبيه المتوفى. في حين ظلت شجر الدر تصدر الأوامر السلطانية على أوراق يقال إن الصالح أيوب كان أعطى لشجرة الدر هذه الأوراق الممهورة بخاتمه على بياض حتى تستخدمها لو مات.

وبعد هزيمة الفرنجة تنكر السلطان الجديد توران شاه لشجر الدر، وأخذ يهددها، كما بدأ في التخلص من المماليك البحرية، أصحاب الفضل الأول في تحقيق النصر، فقرروا التخلص منه، وقتلوه على يد أقطاي.

بعد مقتل توران شاه، كان تاريخ مصر والمنطقة التي حولها يتشكل من جديد عن طريق شجر الدر، وبداية ظهور دولة المماليك البحرية في مصر.

"عصمة الدين أم خليل شجر الدر"

"كانت شجر الدر خوارزمية الأصل، وقيل أنها أرمينية أو تركية. كانت جارية اشتراها السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وكان لا يفارقها سفرًا ولا حضرًا. وولدت منه ابنًا اسمه خليل، مات وهو صغير. وهذه المرأة، شجر الدر، هي أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك."... هذا ما ذكره المقريزي عن "شجر الدر"، في كتابه "السلوك لمعرفة دول الملوك ."

....."لما قتل الملك المعظم توران شاه، ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، كما تقدم ذكره، اجتمع الأمراء المماليك البحرية، واعيان الدولة

وأهـل المشـورة، بالـدهليز السـلطاني، واتفقـوا علـى إقامـة شـجر الـدر، أم خليـل زوجـة الملـك الصالح نجـم الـدين أيـوب، فـي مملكـة مصـر، وأن يكون مقدم العسكر الأمير عز الدين أيبك ".

....."ولم تكن شجر الدر أول من ملـك مصـر مـن ملوك الترك المماليك فحسب، بل إنهـا كانـت أول امـرأة تجلـس علـى عـرش مصـر منـذ الملكـة كليوباترا، وآخر امرأة حكمت مصر منذ ذلك الحين، ولم تجلس على عرش مصـر الـى وقتنـا هـذا أيـة امرأة أخرى." (حسـب المقريزي، المصدر السابق)

لما تم اختيـار أيبـك مقـدما للعسـكر، مـع الملكـة شجر الدر، ووصل الخبر بـذلك إلـى بغـداد، فبعـث الخليفـة المستعصـم بـالله مـن بغـداد كتابًـا إلـى مصر، وهو ينكر على الأمراء ويقول لهم: "إن كانت الرجال قد عدمت عنـدكم، فأعلمونـا حتـى نسـير إليكم رجلاً." (المقريزي)

ولم تجد شجر الدر إزاء ذلـك بـدًا مـن التنـازل عـن العرش للأمير عز الدين أيبك مقدم العسكر، الذي تزوجته، وتلقب باسم الملـك المعـز. وبـذلك تكـون شجر الدر قد حكمت البلاد ملكة على عرش مصر مدة ثمانين يوما.

الخلاف بين "أيبك" و"شجر الدر"

ونذكر نقلاً عن السلوك للمقريزي، انه في سنة 655 هـ/1257 م، بعد أن استبدت شجر الدر بأمور المملكة، فأصبحت لا تطلع أيبك عليها، وألزمته بطلاق زوجته الأولى "أم علي"، ولم تطلعه على ذخائر الملك الصالح، عزم الملك المعز أيبك على قتل شجر الدر، فلما علمت بذلك، أعدت له خمس غلمان ليفتلوه..

وفي يوم الثلاثاء 14 ربيع الأول، ركب الملك المعز أيبك، وصعد إلى قلعة الجبل آخر النهار، ودخل إلى الحمام ليلا، فأغلق عليه الغلمان الباب، فلما أدرك انهم قاتلوه، استغاث المعز بشجر الدر فقالت اتركوه، فأغلظوا لها في القول وقالوا لها: ومتى تركناه لا يبقي علينا ولا عليك، ثم قتلوه..

فلما علم مماليك المعز بفعلتها، أمسكوا بها ونقلوها إلى البرج الأحمر بالقلعة وحبسوها.

"أم علي" تنتقم

لما تسلطن "علي" ابن المعز، فأصبح سلطانًا على المحروسة، أتى مماليك المعز بشجر الدر إلى "أم علي" (أرملة المعز) في يوم الجمعة 27

ربيــع الأول.. اصــطحبت "أم علــي" عــددًا مــن جواريها، ودخلـت علـى شـجر الـدر فـي حمامهـا، وأمـرت الجـواري بضـرب شــجر الـدر بــ"القباقيب" الخشــبية، إلــى أن ماتــت فــي يــوم الســبت.. فحملوها وألقوا بها من سور القلعـة، فبقيـت فـي الخــلاء أيامــا، "واخــذ بعــض أراذل العامــة تكــة سروالها." (حسب المقريزي)

وســارعت "أم علــي" بإعــداد كميــات كبيــرة مــن حلوى صنعتها من الرقاق واللبن والسـكر، وقامـت بتوزيعها على العامة ومساتير الناس ..

وهذه الحلوى التي يتناولهـا المصـريون حتـى الآن والمسماة بـ"أم على" هي ما يـذكره التـاريخ مـن أعمال وانجازات لأرملـة الملـك المعـز أيبـك.... "أم علي.."

شجرة الدر في الخيال الشعبي

قبل أن نبدأ..

نشير إلى أن الشخصية التي نتناول سيرتها هنا، اسمها في كتب التاريخ: "شجر الدر".. أما الخيال الشعبي فأضاف التاء المربوطة (ة) بعد الراء فأصبح اسمها في القصص الشعبي "شجرة الدر.."

فشجرة الدر هو الاسم الدارج المتداول على ألسنتنا كلما ذكرنا هذه الشخصية التي احتفى بها العامة في الحكاية الشعبية.

ونشير أيضا، إلى أن مرجعنا في هذا الجزء (شجرة الدر في الخيال الشعبي)، سيكون الدراسة المهمة للصديق الدكتور/ قاسم عبده قاسم، (لروحه السلام والسكينة): "دراسة في القراءة الشعبية للتاريخ"

السيدة فاطمة شجرة الدر

تأتي سيرة شجرة الدر كجزء من السيرة الشعبية الشهيرة للظاهر بيبرس، تلك السيرة التي حولته

من حاكم إلى بطل تتلى بطولاته فـي المقـاهي، وتتحاكى به الأجيال لبضعة قرون .

امـا أصـل تسـميتها فـي السـيرة الشـعبية ب "شـجرة الـدر"، فراجـع الـى أن الخيـال الشـعبي جعلها بنت خليفة يدعى "شـعبان المقتـدر بـالله" (وليست جارية اشتراها نجم الدين ايوب، كما جاء بكتـب التـاريخ الرسـمي)، وأنهـا سـميت بشـجرة الدر لأن أبوها الخليفة أهداها ثوبا مرصعا بالكامـل بحجر الدر، فلما ارتدتـه صـارت تشـبه شـجرة مـن الدر ..

هذه هي الرواية الشعبية التي أضفت عليها أيضا صـفات حميـدة ترفعهـا الـى درجـة القديسـات فتصفها بالصلاح والتـدين والـذكاء، وأضـاف الخيـال الشـعبي الـى اسـمها اسـم بنـت النبـي (صـلعم)"فاطمة"، فأصـبح اسـمها فـي السـيرة "السيدة فاطمة شجرة الدر"...

بين السيرة الشعبية.. والتاريخ الرسمي

نلاحظ أن السيرة جعلت شجرة الدر بنتا للخليفة، وأعطتها اسـم بنـت النبـي "فاطمـة" (رضـوان الله عليهـا)، ومـع التقـدم فـي متابعـة الحكـي نجـد السيرة تتخلص رويدا رويدا من اسـم شـجرة الـدر

وتستخدم بدلا منه اسم "السيدة فاطمة"، ومن المعلوم أن هذا الاسم له أهمية خاصة وقدر من التبجيل والاحترام لدى المصريين لأنه اسم ابنة النبي عليه الصلاة والسلام.. وهكذا تأبى الرؤية الشعبية ان تلصق صفة العبودية والرق لهذه السيدة، التي لعبت دورا مهما في إنقاذ البلاد، وترتقي بها إلى نسب الخلفاء." (د. قاسم عبده قاسم) .

وهذا وجه الاختلاف الأول بين التاريخ الرسمي والسيرة الشعبية...

ومن خلال حكاية فرعية، تخبرنا السيرة أن الخليفة العباسي وهب أرض مصر لابنته شجرة الدر، ثم نسى ذلك!! (هكذا تقول السيرة) فمنح أرض مصر ايضا علاوة على الشام لصلاح الدين الأيوبي!! ثم تختلق السيرة موقفا يتقابل فيه الصالح نجم الدين أيوب ـ الذي تقول السيرة إن اسمه "الصالح نجم الدين أيوب ولي الله المجذوب"!! وحتى يضمن عرشه، يتقدم "الصالح نجم الدين أيوب ولي الله المجذوب" ويطلب الزواج من شجرة الدر التي ترفض في البداية، لكن كرامات الصالح أيوب (ولي الله المجذوب) تجعلها توافق على الزواج منه...

وتقول السـيرة إن شـجرة الـدر عنـدما نزلـت ارض مصر، أرسلت إلى "الصالح نجم الدين أيـوب ولـي الله المجـذوب" تـأمره بـأن يتـرك أرض مصـر لأنهـا أرضها وحجتها معها..

ويلاحـــظ د. قاســـم ان "... المبـــدع (الوجـــدان الشعبي) لا ينسـى دور الصـالح نجـم الـدين فـي الدفاع عن مصـر ضـد قـوات لـويس التاسـع، رغـم المرض، فيضعه في صورة شعبية محببـة." (ولـي الله المجدوب وله كرامات)..

السيرة تتجاهل دور أيبك

فكمـا كـان حـظ شـجرة الـدر مـن كـرم الخيـال الشعبي كبيرا، فقد جعلتها السيرة ابنـة الخليفـة والحاكمة الشرعية. على الرغم من أن الراوي لـم يذكر أنها جلسـت علـى العـرش، وهـو مـا يخـالف الحقيقـة التاريخيـة. وقـد حـل الخيـال الشـعبي مشكلة جلوس المـرأة علـى كرسـي الحكـم بـأن جعلها تتزوج الصالح نجم الدين أيوب. ولان العقلية الشعبية لا تقبل حكم المرأة فقـد جعلتهـا تتنـازل عن حقها في الحكم لزوجهـا الصـالح نجـم الـدين أيوب، وليس المعز أيبك كما حدث في الحقيقة..

وكانـت أهـم الاختلافـات بـين السـيرة والحقـائق التاريخية، أن السيرة تجاهلت تماما دور عز الـدين أيبك الذي تنكر لشجر الدر بعد أن أجلسـته علـى عرش البلاد، فكان عقـاب الخيـال الشـعبي لايبـك هو إنكـار وجـوده تمامـا، وهـو شـكل مـن أشـكال الانتقـام الـذي أنزلـه بـه الخيـال الشـعبي لمجـرد تفكيره في قتل شجر الدر..

شخصية أسطورية

لقد نفت السيرة صفة العبودية عـن شـجرة الـدر، ونسبتها إلى أحد الخلفاء العباسيين، كما جعلـت سـلوكها مثاليا، وجعلتهـا تعـيش عـدة أجيـال منـذ زمن صلاح الدين الأيوبي حتى تتزوج الصالح نجـم الدين أيوب..

وهنا يتوقف د. قاسـم أمام مفارقة مثيـرة للانتبـاه، فصلاح الدين الأيوبي مؤسـس الدولة الأيوبية فـي مصر، تولى حكم البلاد سنة 1174 م، أما الصـالح نجم الدين أيوب ـ الذي تزوج شجرة الـدر للحفـاظ على عرشـه، كما تقول السـيرة الشـعبية ـــ فقـد كان سابع سلاطين بني أيوب، ومات أثناء الحملـة الصليبية السابعة سنة 1249 م...،

إذن، نجـد أن السـيرة الشـعبية جعلـت السـيدة فاطمة شجرة الدر "تعيش عـدة أجيـال منـذ زمـن صلاح الدين الأيوبي حتى تتزوج مـن الصـالح نجـم الدين أيوب."

ونظن أن لجوء الخيال الشعبي لجعل شجرة الـدر تعيش عدة أجيال كان من منطلق محاولة إسـباغ طابع أسطوري على شخصيتها، فقد أحب النـاس شجر الدر، فسعى الوجدان الشعبي إلي إسقاط العيوب عن الشخصية التاريخية، لصالح الشخصية الشعبية.

تاريخ الرِشيد بين الحقيقة والخيال

"يا أيتها الغمامة أمطري حيث شئتِ، فإن خراجكِ لي"

عندما قال الخليفة هارون الرشيد هذه الجملة، لم يكن مبالغا، فقد ذكر المؤرخون أن دولة الرشيد كانت من أحسن الدول، وأوسعها رقعة، فقد جبا الرشيد معظم الدنيا..

والرشيد من أشهر الحكام العرب القدامى، طبقت شهرته الشرق والغرب على السواء، فقد ارتبط باسمه الكثير من الصفات والمعاني، والصور الخيالية..

فهو الخليفة المترف المسرف في الترف، المشهور بولعه بالغناء واستمتاعه بالنساء والشراب.. وفي هذا قال ابن حزم: "أراه كان يشرب النبيذ المخُتلَف فيه، لا الخمر المُتفَق على حرمتها"... ويقول ابن خلدون: "ما يُحكى من معاقرة الرشيد الخمر، واقتران سكره بالندمان، فحاشا لله، ما علمنا عليه من سوء".... وقال: "وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق، وفتاواهم فيها معروفة، أما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها."

الرشيد في التاريخ الرسمي

ويجمع المؤرخون أن الرشيد كان خليفة قوي هزم أعداء الدولة، "وبسط سلطان الخلافة على أطراف الأرض"، وفرض الجزية على بيزنطة وملوك الروم، وقضى على التمرد والمتمردين حتى استقرت أحوال الخلافة..

وذكر المؤرخون أنه كان فقيها بألوان العلم والدين والأدب، مشجعًا للفقهاء، والعلماء، والشعراء، والكتاب.. كما كان "الخليفة الورع الزاهد المُتهالِك نُسُكًا وطاعة وتبتُّلاً لله" (عصر المأمون، احمد فريد رفاعي)، وقالوا فيه: إنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا، وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته.. وكان يحج سنة ويغزو كذلك سنة.. وكان عندما يخرج للحج يأخذ صحبته مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج، أخرج للحج بديلاً عنه ثلاثمائة بكل ما يحتاجون من نفقة وكسوة. (الطبري وابن خلدون)

وفي كتب التاريخ نقرأ: ان الرشيد كان "من أنبل الخُلفاء، وأحشم الملوك، ذا حجّ وجهاد، وغزو، وشجاعة، ورأي. وكان أبيض طويلا، جميلا،

وسيما، ذا فصاحة وعلم وبصر بأعباء الخلافة، وله نظر جيد في الأدب والفقه. قيل: إنه كان يحب العلماء، ويعظم حرمات الدين، ويبغض الجدال والكلام، ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه، لاسيما إذا وُعِظ. وكان يحب المديح، ويجيز الشعراء، ويقول الشعر. وقد دخل عليه مرة ابن السماك الواعظ، فبالغ في إجلاله، فقال: تواضعك في شرفك أشرف من شرفك، ثم وعَظَهُ، فأبكاه.. ووعظه الفُضَيل مرة حتى شهق في بكائه." (الحافظ الذهبي)

لقد امتزجت الحقيقة بالأسطورة، وتداخل التأريخ والخيال، في رؤية المؤرخين للخليفة هارون الرشيد، إلى الدرجة التي جعلت مؤرخين كبار يُعتد برواياتهم، يُضمِّنون تأريخهم روايات هي أقرب إلى مزاج الخيال الشعبي منها إلى التأريخ، فنجد بعض المؤرخين يذكرون في رواياتهم لتاريخ أمير المؤمنين هارون الرشيد، أحداثًا لا يمكن أن يقبلها أي مدقق في أحوال الممالك والملوك والدول..

فعلى سبيل المثال، نجد الكثير من المؤرخين، عند الحديث عن سبب نكبة البرامكة يرجعون غضب الرشيد عليهم لما يشبه مؤامرات الحريم وكيدهن، متجاهلين الأسباب المتعددة، والدوافع

السياسية المختلفة، والصراع على الحكم، التي أحاطت بحادثة نكبة البرامكة، تلك الأسباب التي تأرجح المؤرخون حولها، ولم يستطع أي منهم أن يجزم بماهية السبب الحقيقي لوقوع هذه النكبة. فجميعهم، رغم اتفاقهم على السياق الذي أحاط بنكبة البرامكة، والأحداث التي سبقتها وتلتها، إلا انهم لم يتفقوا على الأسباب والدوافع التي أدت إلى وقوعها.

فالمسعودي، والطبري، وابن كثير ــ وكل منهم مؤرخ مُعتبَر يُعتَد به ــ يتناولون أسباب غضب الرشيد على البرامكة على النحو التالي...

يقول الطبري في تاريخ الرسل والملوك): "إن سبب هلاك جعفر والبرامكة، أن الرشيد كان لا يصبر عن بعاد جعفر، وعن بعاد أخته عباسة بنت المهدي، فكان يحضرهما إذا جلس للشرب، وذلك بعد أن أعلم جعفرًا قلة صبره عنه وعنها، وقال لجعفر: أزوجكما ليحل لك النظر إليها إذا أحضرتها مجلسي، وطلب منه ألا يمسها، ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل إلى زوجته.... فكان يحضرهما مجلسه إذا جلس للشرب، ثم يقوم عن مجلسه ويتركهما، فيثملان من الشراب،

وهما شابان، فيقوم إليها جعفر فيجامعها، فيأتي منها غلاها".....

أما المسعودي، فروايته أقرب لحكايات ألف ليلة وليلة.. فإن ما يرويه المسعودي عما حدث بعد أن علم الرشيد بما كان بين العباسة وجعفر البرمكي، أمر يثير العجب.. ففيه من الطرافة والتسلية القدر الوافر، ومن المأساة قدرًا أوفر، ومن الملهاة ما يبعث ضحكا هو أقرب إلى البكاء.

يقول المسعودي في كتابة مروج الذهب ومعادن الجوهر: وانصرفت العباسة مشتملة من جعفر على حمل، ثم ولدت غلاما، فوكلت به خادمًا من خدمها وحاضنة، فلما خافت ظهور الخبر وانتشاره، وجهت الصبي والخادم والحاضنة إلى مكة، وأمرتهما بتربيته، وأن يكتما الأمر ولا يصرحا به لأي كان".

ويستطرد المسعودي: لما علم الرشيد بالأمر، عن طريق زبيدة، أحب زوجاته إليه.. فأمسك الرشيد عن ذلك (أي كتمه في داخله ولم يخبر أحدا بما علم من خبر الرضيع ابن جعفر البرمكي والعباسة)، وأظهر أنه يريد الحج، فخرج هو وجعفر البرمكي.. ولما علمت العباسة بخروج الرشيد

قاصـدا الأراضـي الحجازيـة، كتبـت إلـى الخـادم والحاضنة أن يخرجا بالصبي إلى اليمن.. فلما صار الرشيد بمكة، وَكَّلَ من يثق بـه بـالفحص والبحـث عن أمر الصبي، فوجد الأمر صحيحا.. فلمـا قضـى حجه ورجع، أضمر التخلص مـن البرامكـة ومعاقبـة جعفر على فعلته، فأقام ببغداد مدة، ثم خرج إلى الأنبار، فلما كان في اليـوم الـذي عـزم فيـه علـى قتل جعفر دعا السندي بن شاهك (مـدير شـرطة الخليفة هارون الرشيد، وقد عرف بقسوته البالغة وعدم تردده فـي قتـل أي شـخص يقـع بـين يديـه حفظًا لنظام الخليفة وامتثالاً لأوامره)، قال الرشيد لابن شـاهك: إنـي آمـرك بالمضـي مـن سـاعتك، والتوكيل بدور البرامكة (أي كبس بيوتهم والقـبض علـيهم)، فسـأله ابـن شـاهك فـي عجـب: البرامكة؟!.. كلهم؟! أجابـه الرشـيد: دور البرامكـة ودور كتابهم وأبنائهم وقراباتهم وأشياعهم جميعا..

ثـم دعـا الرشـيد جعفـر البرمكـي إلـى مجلسـه، فأقاما يومهما بأحسـن هيئة وأطيب عـيش، وكـان بالمجلس بعض من أهل الكلام، وغيرهم من أهل الآراء، وطال الكلام فـي موضـوعات شـتى، حتـى أمر الرشيد بفض المجلس، وخرج مشيعا جعفر..

ثم رجع فجلس، واستدعى خادمه ياسـر، فطلـب منه أن يأتيه برأس جعفر البرمكـي، فـذهب ياسـر لينفذ أمر الخليفة وهو في غايـة مـن الدهشـة... ولما عاد ياسر برأس جعفر البرمكي، وضعها بـين يدي الرشـيد، فلما رأى الرأس بين يديه، طلب من ياسر أن يأتيه بخادميه محمد والقاسم، فلما أتيا.. قال الرشـيد: "اضربا عنق ياسـر، فـإني لا أقـدر أن أنظر إلى قاتل جعفر"!!!

وروى ابن الجوزي أن الرشـيد سـئل عـن السـبب الذي من أجله أهلك البرامكة فقال: "لـو أعلـم أن قميصي يعلم ذلك لأحرقته ".

وعن ابن كثير تفاصيل أخرى.. فيروي فـي البدايـة والنهاية: "أن العباسة أحبت جعفـر البرمكـي حبـا شـديدا، فراودته عن نفسه فـامتنع أشـد الامتنـاع من خشـية أمير المؤمنين، فاحتالت عليـه، وكانـت أمه تهدي إليه في كل ليلة جمعة جاريـة حسـناء بكرا، فقالـت العباسـة لأم جعفـر: أدخلينـي عليـه في صفة جارية من تلك الجواري، فهابت الأم مـن تلـك، فضـغطت عليهـا العباسـة وهـددتها حتـى فعلـت.. فلمـا دخلـت العباسـة عليـه وكـان فيمـا مضى لا يتحقق وجههـا مـن مهابـة الرشـيد (!!!) فواقعها فقالت له: كيف رأيت خديعة بنات الملوك.

فقال: ومن أنت؟ فقالت: أنا العباسة.. وحملت من تلك الليلة، فدخل جعفر على أمه فقال لها: "بعتيني والله برخيص .."

وبعد مقتل جعفر، بعث الرشيد برأسه وجثته، فنصب الرأس عند الجسر الأعلى، وشق الجثة الى نصفين وضع النصف عند الجسر الأسفل، والآخر عند الجسر الآخر، ثم أحرقت بعد ذلك.. ونودي في بغداد أن لا أمان للبرامكة ولا لمن آواهم....

ثم أرسل الرشيد من ليلته البرد (البريد) إلى ولاته جميعا يأمرهم بالاحتياط على البرامكة جميعهم ببغداد وغيرها، فأخذوا كلهم عن آخرهم، فلم يفلت منهم أحد، وأخذ جميع ما كانوا يملكونه من الأموال، والموالي، والحشم، والخدم، واحتيط على أملاكهم ..

وروي أن الرشيد كان يقول: "لعن الله من أغراني بالبرامكة، فما وجدت بعدهم لذة ولا راحة ولا رخاء، ووددت والله أني شوطرت نصف عمري وملكي، وأني تركتهم على أمرهم."

في الحقيقة أن هذه الروايات حول غضبة الرشيد على البرامكة، والتي أدت إلى ما يسمى: "نكبة

البرامكـة"، لا يمكـن التعويـل عليهـا مـن قبـل أي باحث جاد..

فيحي بن خالد البرمكي (ابو جعفر) هو مـن وقـف مع الخيزران (أم الرشيد)، وانقذ الرشيد من تجبـر الخليفـة الهـادي (أخـو الرشـيد)، ومـن ثـم حمـل الرشيد هذا الجميل فكـان يعامـل يحـي البرمكـي معاملة الابن لوالده، وأطلق يد البرامكة فـي إدارة شئون الحكم..

فمن المعروف إن المهدي (والد الرشيد) طلب من يحـي البرمكـي (والـد جعفـر) الاعتنـاء بالرشـيد، فأحسـن تربيتـه، حتـى شـب فـي حجـره، فكـان بمثابة الوالد للرشد، حيث كـان الاخيـر يناديـه "يـا أبـت".. وتشـير الروايـات التاريخيـة إلـى أن "الخيـزران" (والـدة الرشـيد) اسـتعانت بيحيـي البرمكي لتولية الرشيد أمر الخلافـة.. فعنـدما أراد الهادي (أخو الرشيد) خلعه من ولاية العهد وتولية ابنه مكانه، تعاونت "الخيزران" مع يحـي البرمكـي لإفشـال خطة الهادي.. وخلاصة القول إن البرامكة هم من مكنوا الرشيد من الخلافة،

وكما تقـول الروايـات التاريخيـة: "إن الرشـيد أحـب جعفر ونادمه، وكان يشـرب الخمـر معـه وتـرك لـه

الأمر والنهي في الدولة" ... وبلغ من حب الرشيد لـه أنـه كـان لا يطيـق الابتعـاد عنـه، ".... فاتخـذ الرشيد ثوبًا كان يجلس فيـه للمنادمـة مـع جعفـر هــو نفســه الثــوب الــذي يرتديــه جعفــر...."!! (المسعودي، وعفيف الدين اليافعي)

رؤية ابن خلدون لنكبة البرامكة

هنا سنتوقف عن سـرد الروايـات التاريخيـة لنكبـة البرامكة ـ التي هي اقرب الـى الخيـال الشـعبي من التأريخ ـ وسـنتناول فـي الأسـطر التاليـة رأي ابـن خلـدون فـي هـذا الأمـر، والـذي سـطره فـي مقدمتـه الشـهيرة لكتـاب "العبـر وديـوان المبتـدأ والخبر.."

يقول ابن خلدون:

....." فلما ولى الرشيد، اسـتوزر "يحيـى" وفـوض إليــه أمــور ملكــه، وكــان فــي البدايــة يشــاور "الخيزران" أم الرشيد في أمور الملك ويأخذ رأيها، ثم ما لبث أن استبد بالدولة لما ماتت.. وكان بيت البرامكة مشهورًا بالرجـال مـن العمومـة والقرابـة، وكان بنوه "جعفر" و"الفضل" و"محمـد" قـد سـاروا على خطـى آبـائهم فـي عمـل الدولـة، واسـتولوا علـى حـظ مـن تقريـب السـلطان واستخلاصـه....

فعظم سلطانهم واستيلاؤهم على الدولة وكثرت السعاية فيهم (أي الدس والوشاية فيهم عند الرشيد)، فعظم حقد الرشيد عليهم...."

"..... فلما كثرت السعاية فيهم تنكر لهم الرشيد، ودخل عليه يومًا يحيى البرمكي بغير إذن (وكانت عادته أن يدخل بغير إذن)، فنهره الرشيد على ذلك، وبعد أن كان الغلمان الذين يقفون بباب الرشيد، يقومون ليحيى إذا دخل، تقدم لهم مسرور الخادم بالنهي عن ذلك، فصاروا لا يقومون وقوفًا إذا أقبل..."

"..... فلما حج الرشيد سنة سبعة وثمانين ورجع من حجه ونزل الأنبار أرسل مسرور الخادم في جماعة من الجند ليلاً فأحضر "جعفر" بباب الفسطاط وأعلم مسرور الرشيد فقال ائتني برأسه فطفق جعفر بتذلل لمسرور ويسأله المراجعة في أمره حتى قذفه الرشيد بعصى كانت في يده وتهدده فخرج وأتاه برأسه، وبعث من احتاط على منازل "يحيى" وولده وجميع موجودهم وحبسه في منزله، وكتب من ليلته إلى سائر النواحي بقبض أموالهم ورقيقهم، وأمر أن يقسم جسد "جعفر" قطعتين ويعلقان على الجسر ..."

وبعـد أن روى ابـن خلـدون مـا يـراه مـن أحـداث احاطت بنكبة البرامكة، يقدم رؤيته حول أسـبابها، وما يحيط من أخطاء وأغلاط في رؤية الأولـين مـن المـؤرخين، وفـي هـذا يقـول: ".... المشـكلة لا تتعلـق بالمسـعودي وحـده، بـل بجمهـرة الـرواة والمؤرخين والناقلين على وجه العموم، فكثيرًا مـا ضلوا عن الحق وتاهوا فـي بيـداء الـوهم والغلـط.. وإذا أردت الدقة، المشكلة تتعلق بالرؤية إلى علم التـأريخ نفسـه.. وبـين أيـدينا الآن، فيمـا أورده المسعودي، مثال حي لما يذهب إليـه المؤرخـون من نتائج مغلوطة، فلا يقبل العقل الناقد المتبصـر في أحوال الدول والممالك، أن يفسر قيام دولة أو انهيـار مملكـة، بمكائـد الحـريم، وأغـلاط النسـوة وكيدهن لفلان أو علان من رؤوس الدول، ولا يعقل أن تنتهي دولة البرامكة، بكل مـا لهـا ومـا عليهـا، بسـبب كيـد "زبيـدة" (زوجـة الرشـيد)، أو احتيـال "العباسـة"، أو غلـط "أم جعفـر"..... إنمـا نكـب البرامكـة مـا كـان مـن اسـتبدادهم علـى الدولـة واسـتيلائهم علـى أمـوال الجبايـة، حتـى كـان الرشيد يطلب اليسـير مـن المـال فـلا يصـل إليـه، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه، فعظمـت آثـارهم، وزاد صـيتهم، وعمـروا مراتـب الدولـة وخططهـا

بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، ومنعوها عن سواهم من وزارة، وكتابة، وقيادة، وحجابه، وسيف، وقلم...." (مقدمة ابن خلدون)

"إن نكبة البرامكة، لم تكن بسبب ما حصل بين العباسة وجعفر البرمكي، كما يرى المسعودي وغيره من المؤرخين، إنما كانت نتيجة للصراع بين البرامكة وهارون الرشيد على السلطة في الدولة....."

"..... فمما يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى البرمكي خمسة وعشرون رئيساً، من بين صاحب سيف وصاحب قلم، زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب، فتوجه الإيثار من السلطان إليهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرقاب، أهديت إليهم من كل النواحي هدايا الملوك وتحف الأمراء، وسيرت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية، وأفاضوا في رجالهم وعظماء القرابة العطاء، وطوقوهم بالمنن، فمدحوا بما لم يمدح به خليفتهم، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك، فضاق بهم الرشيد ذرعًا وكان في أمرهم ما كان"

الرشيد في الخيال الشعبي

في معظم قصص ألف ليلة وليلة نرى شخصية الرشيد تحتفظ بكثير من صفاتها التاريخية المعروفة، الواردة في المصادر المختلفة، والتي اتفق عليها جل المؤرخين، بيد أن الخيال الشعبي نسج من هذه الصفات، حكايات ووقائع وأحداث ينسبها إلي الرشيد، فحلق بالخيال، وطاش إلى أبعد الحدود..

حكاية الجارية الحسناء والرشيد

من الحكايات التي جنح فيها الخيال الشعبي، حكاية الجارية الحسناء والرشيد وجعفر البرمكي والإمام أبو يوسف القاضي..

تقول الحكاية: إن جعفر البرمكي نادَم الرشيد ليلة فقال الرشيد: يا جعفر بلغني أنك اشتريت جارية حسناء شديدة الجمال فبعها لي، فقال جعفر: لا أبيعها يا أمير المؤمنين، فقد أقسمت أن العباسة أختك طالق ثلاثًا إن بعتها لك، فقال الرشيد: زبيدة طالق ثلاثًا إن لم تبعها أو تهبها لي. فقال جعفر: لقد اقسم بان أختك العباسة طالق ثلاثًا إن وهبتها لك... ثم أفاقا من نشوتهما وعلما أنهما وقعا في أمر عظيم، وعجزا عن تدبير الحيلة. فقال

هـارون الرشـيد: هـذه وقعـة لـيس لهـا غيـر أبـي يوسـف القاضي، فطلبوه...

فلما دخل عليهما، قال له الرشيد: ما طلبناك في هذا الوقت إلا لأمر مهم هـو كـذا وكـذا وكـذا، وقـد عجزنا في تدبير الحيلة. فقال أبو يوسـف: يـا أميـر المؤمنين إن هذا الأمر أسهل ما يكون، ثم خاطـب جعفر قـائلا: يـا جعفـر بـع لأميـر المـؤمنين نصـفها الأعلــى، وهــب لــه نصــفها الأســفل، فتبــرآن بيمينكما، فأنت في هـذه الحالـة لـم تبـع الجاريـة كلها، وفي نفس الوقت لم تهبها كلها.. فسر أمير المؤمنين بذلك.. وفعل جعفر ما أمـر بـه.. ثـم قـال هــارون الرشــيد: أحضــروا الجاريــة فــي الوقــت والساعة، فإني شديد الشوق إليها.

فاستوقفه جعفر وقال: مهلاً يا أمير المؤمنين، فلم نتفق بعد على المبلغ الذي ستدفعه فـي نصـفها الأعلى، فضحك الرشيد وقال: اطلب مـا شـئت يـا جعفر، فقال: أريد وزن النصـف الأعلـى ذهبـا، قـال الرشيد: وافقت، فقـال جعفـر: وكيـف نـزن نصـفها الأعلى دون أن يؤثر نصفها الأسفل في الـوزن؟ رد الرشيد: هذا أمـر بسـيط، فلـن أجـادل فـي بعـض الذهب الذي سيزيد نتيجـة إضـافة وزن جـزء مـن نصفها الأسفل، فقال جعفر: لا.. هذا لا يجوز فقـد

وهبت النصف الأسفل، والوهبة لا تباع، فإذا أخذت أي مبلغ نظير تأثير الجزء الأسفل في الوزن تبطل الصفقة، فقال الرشيد: ها قد عدنا إلى المربع الأول، ما الرأي يا أبا يوسف؟

ضحك أبو يوسف القاضي، ثم قال: يا أمير المؤمنين إن هذا الأمر أسهل ما يكون، يا جعفر قل لأمير المؤمنين، بعت لك النصف الأعلى بالأجل، ففعل جعفر، ثم سأل أبو يوسف: كم من الوقت حتى تسأم من الجارية يا أمير المؤمنين، فرد جعفر: أمير المؤمنين لا يطيق الصبر على أي جارية أكثر من أسبوع، فهتف أبو يوسف القاضي: إذن فسوف يحل الأجل عندما يسأم أمير المؤمنين من الجارية، أي بعد أسبوع....

قال جعفر وقد فقد صبره: هذا لن يحل المشكلة يا أبا يوسف، فما زال وزن نصفها الأعلى سيؤثر في وزن نصفها الأسفل، حتى عندما يحل الأجل ...

قال أبو يوسف: يا جعفر البرمكي، إن هذا الأمر أسهل ما يكون.. عندما يحل الأجل نقطعها نصفين، ونزن النصف الأعلى وحده، فلا يؤثر النصف الأسفل في وزن النصف الأعلى.

الرشيد في حكايات ألف ليلة وليلة

يقول احمد أمين في كتابه {هارون الرشيد}: ".....وكان مِن حُسْن حظ الرشيد، رواج ألْف ليلة وليلة رواجًا عظيمًا في الغرب، ووقوفهم على قيمتها، عكس ما كان ينظر الشرقيون إليها قديما، فقد وصفها ابن النديم بأنها قصص تافهة، ولكن الغربيين رأوا فيها خير ما يمثل الحياة الاجتماعية، فيما تروي من عقائد، ومن حوار، ومن مكر نساء، ومن لعب شطرنج إلى غير ذلك، ورأوا أنها تمثل الشرق من جميع نواحيه، فعنوا بها من نواح مختلفة. وربما كان أول مَن ترجمها إلى الفرنسية الأديب الفرنسي "جالان" ثُم "إدوارد لين" إلى الإنجليزية، ثُم "لتمن" بالألمانية. وقد راجت هذه الترجمات رواجًا منقطع النظير، وكان في رواجها رواج للرشيد معها..... ثم كان ما نتج عن ذلك، من استغلال هذه الترجمة بالنسج على شاكلتها، ووضع قصص أحيانًا للأطفال، وأحيانًا للكبار، وأحيانًا تمثيلية، وأحيانًا غير تمثيلية، وهكذا. وكلها عَمِلت لهارون الرشيد عمل السحر، مما لم تعمله أية دعاية لأي ملك آخر".

ومن الحكايات التي نسبتها ألف ليلة وليلة لعصر الرشيد حكاية السندباد البحري، أما الحكايات

التي كان الرشيد بطلها، فهي عديدة منها حكاية "قوت القلوب"، وحكاية "الرشيد مع خليفة الصياد"، وحكاية "البنت العربية" التي أنشدت أبياتًا أعجب بها ثم طلب منها تغيير القافية واستبقاء المعنى فغيرتها مرارًا في مقطوعات عجيبة فأعجب بها وتزوجها. وهناك حكايات أخرى لم يكن الرشيد فيها بطل الحكاية، لكنها تدور حول تجواله ببغداد متنكرا، مثل حكاية "الشاب العماني" الذي أضاع ثروته على الغواني، وحكاية "محمد بن علي الجوهري.

القسم الثاني

التأريخ بين الطرائف والأساطير

مقدمة القسم الثاني

يتنـاول ابـن خلـدون فـي مقدمتـه (وهـو مصـدر اساسي لهذا القسم) العديـد مـن النمـاذج التـي جاءت في كتب التاريخ العربـي، وهـي بعيـدة كـل البعد عن كونها تأريخ لأحداث، بل تندرج تحت باب الأسـاطير والخرافـات.. يتنـاول ابـن خلـدون هـذه الأساطير والخرافات بالتحليل والنقد، في محاولـة للوصول الى الأسباب التي جعلـت المـؤرخ يعتمـد هـذه الأسـاطير باعتبارهـا أحـداثا تاريخيـة حـدثت على النحو الذي يذكره المؤرخ.

ومـن الأسـباب التـي يـذكرها ابـن خلـدون فـي مقدمته... "أن الأخبار إذا اعتمد فيهـا علـى مجـرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعـد السياسـة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لـم يـؤمن فيهـا مـن العثـور (التعثـر)، ومزلـة القدم، والحيد عـن جـادة الصـدق."... وهـذا جانـب من الأسباب التي يعرضـها فـي مقدمتـه، إذ يضـع مجموعـة مـن القواعـد التـي يجـب علـى المـؤرخ الأخذ بها حتى ينجو من الأغلاط والزلات.

فمن المؤرخين من وقع في شـرك هـذه الأغـلاط، فـالكثير مـن الأسـاطير والخرافـات، فـي شـتى الموضـوعات والأحـداث، تمتلـئ بهـا كتـب التـاريخ

القديمة، فالكثير من المؤرخين ينقلون الروايات والأخبار دون تدقيق فيما ينقلونه ثقة منهم بمن ينقلون عنهم، فالكثير من المؤرخين والمفسرين وأئمة النقل يقعون في الاغلاط عند نقل الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا، لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلّوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط...

يستهل ابن خلدون مقدمته بفصل تحت عنوان: "في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع بما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها" فيقول:

اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا.... وفن التاريخ محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت، يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط ...

وهنا سنعرض في عجالة شديدة للقواعد التي ذكرها للتحقق من صدق ما ينقلون، دون الدخول في مناقشتها قاعدة قاعدة، فهذا خارج عن نطاق هذا المقال، وهذه القواعد هي:

التأمل والاستقراء... التحقيق العقلي... التحقيق الحسي... سؤال الخبراء... المقارنة بالأشباه... التجربة... النظر في الحوادث في إطارها الزماني

عجائب الإسكندرية وطِلَّسماتها

وكثيراً ما يعرض للسامعين قبول الأخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم.. كما نقله المسعودي عن الإسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الإسكندرية.. وفى حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة، يذكر المسعودي في كتابه: "مروج الذهب ومعادن الجوهر" قصة تحمل من الطرافة والخيال ما يجعلها تقترب من الأساطير والخرافات أكثر من كونها سردا لحقائق تاريخية. ففي فصل: الإسكندرية، وبنائها، وملوكها، وعجائبها، يحكي قصة كيفية بناء الإسكندرية فيذكر أن الإسكندر لما شرع في بناء الإسكندرية، ووضع أساس مدينة عظيمة.. جلب لبنائها مائة الف من الفعلة والخدم، لكن دواب البحر كانت تصده عنها، ومكث فترة طويلة كلما وضع جزءا من الأساس، جاءت دواب البحر فهدمه، فيعاود البناء مرة أخرى فتأت دواب البحر فتهدمه، وهكذا... فاغتم لذلك غما شديدا وشغله الفكر، وظل يبحث عن حل لتلك المعضلة، ويفكر في حيلة ترد عنه دواب البحر حتى يتمكن من تحقيق مأربه ببناء مدينة الإسكندرية. وفي إحدى الليالي وهو ساهر يتفكر سنحت له الحيلة ... فلما أصبح دعا الصناع وطلب منهم صنع صندوق من الخشب طوله عشرة أذرع وعرضه خمس (حسب رواية

المسعودي)، وطلب من الصناع عمل فتحات مستديرة في الخشب، يوضع بها زجاج يحاط بالزفت والقار وغير ذلك من الأطلية التي تحول دون دخول الماء الى الصندوق، ودخل الإسكندر ومعه رجلان من رجاله ممن لهما علم بفنون الرسم والتصوير، وأمر أن تسد عليهم الأبواب، وتطلى بالزفت والقار حتى لا يتسرب الماء الى داخل الصندوق.

ثم أمر بإحضار مركبين كبيرين وربط الصندوق إليهما بالحبال، ثم ربط المركبين بعضهما ببعض عن طريق خشبة طويلة حتى لا يفترقا، ووضع بأسفل الصندوق مثقلات الحديد والرصاص والحجارة حتى تأخذ الصندوق الى أسفل داخل الماء، ثم امر بغمر الصندوق في الماء، حتى وصل الى قاع البحر. وهنا ننقل ما ذكره المسعودي بعد ذلك، حيث قال: "..... فنظروا إلى دواب البحر وحيوانه من ذلك الزجاج الشفاف في صفاء ماء البحر؛ فإذا هم بشياطين على مثال الناس، رؤوسهم متعددة لكن على مثال رؤوس السباع، وفي أيدي بعضهم الفؤوس، وفي أيدي بعضهم المناشير والمقامع، يحاكون بذلك صناع المدينة والفعلة وما في أيديهم من آلات البناء، فأثبت الإسكندر ومن معه تلك الصور وأحكموها بالتصوير في القراطيس، على اختلاف أنواعها وتشوه

خلقتهم وقـدودهم وأشـكالهم، ثـم حـرك الحبـال، فلما أحس بذلك من في المـركبين جـذبوا الحبـال وأخرجوا التابوت، فلما خرج الإسـكندر من التـابوت، وسـار إلى مدينـة الإسـكندرية، أمـر صـناع الحديـد والنحاس والحجارة فصنعوا مثل تماثيل تلك الدواب على ما كان صوّره الإسكندر وصاحباه، فلما فرغوا منها وضعت التماثيل على العمد بشـاطئ البحـر، فلما جـن الليـل ظهـرت تلـك الـدواب والآفـات مـن البحر، فنظرت إلـى صـورها علـى العمـد، فرجعـت إلى البحر ولم تعد بعد ذلك".

وتعليقا علـى هـذه القصـة الأسـطورة، يقـول ابـن خلـدون فـي مقدمتـه: "..... وهـذه أحاديـث خرافــة مســتحيلة، مــن قبــل اتخــاذه التــابوت الزجاجي ومصادمة البحـر وأمواجـه، ومـن قبـل أن الجن لا يُعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها، إنمـا هي قادرة على التبدل والتشـكل، ومـا يُـذكر مـن كثرة الرؤوس لها فإنما المراد البشاعة والتهويل لا أنــه حقيقــة. وهــذه كلهــا قادحــة فــي تلــك الحكايــة..... وأبــيَن مــن هــذا كلــه، هــو أن المـنغمس فـي المـاء، ولـو كـان فـي الصـندوق، يضـيق عليـه الهـواء للتـنفس الطبيعـي وتسـخن روحه بسرعة لقلتـه، فيفقـد صـاحبه الهـواء البـارد المعــدل لمــزاج الرئــة والــروح القلبــي ويهلــك مكانه."... والشـيء الغريـب، ان معظـم المـؤرخين

القـدماء يتعـاملون مـع القصـص الخرافيـة، التـي تقتـرب مـن الأسـاطير، باعتبارهـا وقـائع تاريخيـه صحيحة.

يستمر المسعودي في ذكـر عجائـب الإسـكندرية وطِلَّسـماتها (الطِلّسـمات: هـي التعاويـذ، وهـي خطـوط وكتابـات لا تحتـوي علـى معنـى واضـح ومفهـوم يسـتخدمها السـحرة أو أتبـاع بعـض المعتقدات وتكون تعويذة مـا يُـزعم أنهـا تـدفع كـل مؤذ أو تجلب الحـظ السـعيد.)، فيـذكر انـه بعـد أن أتـم الإسـكندر بنـاء الإسـكندرية، واحكـم بناؤهـا، وسـكنها أهلهـا، كـان سـكان البحـر مـن دوابـه وشـياطينه تخـرج لـيلا الـى البـر تخطـف بعـض السـكان مـن أهـل المدينـة، فيصـبحون وقـد فُقـد منهم الكثير من أعداد السكان، ويستند في هـذا كما يقول: "على ما زعم الإخباريون من المصريين والإسكندريين.... فجعل من هذه الأعمـدة ثمـانون ذراعا، وجعل تحتها صـورا وأشـكالا وكتابـة، وهـي تفعل فعـل الطلسـمات النافعـة المانعـة والدافعـة للشرور".

الملكة "دلوكة" العجوز

وعـن منـارة الإسـكندرية يقـول المسـعودي: "أمـا منـارة الإسـكندرية فـذهب الأكثـر مـن المصـريين والإسكندرانيين ـ ممن عني بأخبار بلدهم ـ إلى

أن الإسكندر بن فليبس المقدوني هو الذي بناها، على حسب ما قدمنا في بناء المدينة". ثم يستطرد بان هناك أقاويل بان من بناها هي دلوكة العجوز (يذكرها المسعودي في أكثر من موضع باعتبارها ملكة من ملوك مصر الفرعونية القديمة)، ويسرد أقاويل أخرى تقول إن من بناها ملوك آخرين من ملوك مصر القديمة، ورومية (روما). ثم يستطرد فيقول: " وإن الذي بناها جعلها على كرسي من الزجاج على هيئة السرطان في جوف البحر وعلى طرف اللسان الذي هو داخل في البحر من البر، وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره، وفيها تمثال قد أشار بسبابته من بده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك، واذا علت في الفلك فأصبعه مشيرة نحوها فإذا انخفضت، انخفضت يده سفلا يدور معها حيث دارت، ومنها تمثال يشير بيده إلى البحر إذا صار العدو منه على نحو من ليلة، فإذا دنا وجاز أن يُرى لقرب المسافة سُمع لذلك التمثال صوت هائل يُسمع من ميلين أو ثلاثة، فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم، فيرمقونه بأبصارهم، ومنها تمثال كلما مضى من الليل والنهار ساعة سمعوا له صوتا بخلاف ما صوت في الساعة التي قبلها، وصوته مطرب".

وهكذا يستمر المسعودي في سرد جملة من الطرف والخرافات عن مدينة الإسكندرية، بعد أن قص أسطورة بنائها.

المصادر:

ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، الجزء الأول، دار يعرب، الطبعة الأولى، 2004.

المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الأول، مؤسسة دار الهجرة، 1966.

عبد الله محمد الدرويش، محقق طبعة مقدمة ابن خلدون.

مس من الجن أم قدر الله..

أهل المحروسة والأوبئة

"كان الطاعون سيد المدينة طوال فترة إقامتي، وظهر الخوف في كل شارع وكل حارة، لكن الشرقيين يمتلكون حظاً وافراً أكثر من أوروبا تحت بلوى من هذا النوع. ففي مدن الموت، نُصِبت الخيام، وعُلِّقت المراجيح لتسلية الأطفال، عيد كئيب، لكن المسلمين تباهوا بإتباعهم عاداتهم القديمة غير عابئين بظل الموت"!

يصَدّر "شلدون واتس" كتابه ـ الذي يعد من المصادر المهمة في تاريخ الأوبئة ـ بهذه العبارة التي كتبها "إلكسندر كينجلاك" في عام 1836، إبان معايشته للوباء بالقاهرة.

الروح المصرية أمام الشدائد

يعلق الكاتب دكتور محمد المخزنجي على هذه العبارة قائلا: "تلك الملاحظة الغربية عن الروح الشرقية لدى المصريين عمومًا، وليس المسلمين فقط، هي التي انتبه إليها أوروبي آخر عاش في مصر تحت شدة مماثلة. وأورد "روبير سوليه" في كتابه "مصر ولع فرنسي" ما أثار تعجب ذلك الأوروبي من المصريين، ففي عز

سطوة الوباء رآهم يسهرون ليلعبوا الكرة في الشوارع لتشتيت "الجن" الذي يحمل "الموت الأسود" للناس، فيرتبك، وتُخطئهم ضربات منجل الموت الذي يحصد به الأرواح."

يصف "شلدون واتس"، ما حدث بعد انتهاء الطاعون فيقول: "عندما انتهى الطاعون عام 1349، كان قد أتى على الأخضر واليابس، وانتشرت المجاعة، لكن في خلال سبع أو ثمان سنوات، كانت معظم قرى الدلتا تنتج القمح والمواد الغذائية الأخرى المطلوبة لتغذية القاهرة وسائر المدن بالمحروسة. وفي القاهرة والمدن الأخرى استعادت الأعمال الحرفية، والبيع والشراء، والأنشطة اليومية، عافيتها في تأكيد على الاستمرارية التي كانت طريقة مصرية خالصة"،

لكن هذه الطريقة المصرية الخاصة لم توقف الشدائد، فظلت موجات الأوبئة تتوالى، وكان للمصريين سلوكهم الخاص تجاهها. فما بين عامي 1347 و1805 لم تتغير ردود أفعال المصريين بأي شكل ملموس، لأنه لم تكن لدى أية مجموعة منهم سبب ملزم لتغيير أنماط سلوكها المعتادة، وبرغم ذلك عندما كان يواجَه أهل القرى بقوى خارجية، تأتي من الخارج

(كالأوبئة)، فإنهم يقفون مع بعضهم البعض جميعا موقفا أخلاقيا، وفي الأوقات العادية يعودون إلى سيرتهم المعتادة، فكانوا ميالين إلى الانقسام إلى مجموعات عائلية تميل الى التنازع،

أما المماليك فكان سلوكهم تجاه الطاعون يختلف من مجموعة لأخرى حسب ترتيبات المصالح، فعندما داهم الطاعون مصر عام 1347 هرب العديد منهم بقيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (الذي كان يبلغ من العمر آنئذ أحد عشر عاما) من القاهرة إلى القرى الخالية من الطاعون شمال المدينة، إلا أن معظم المماليك قرروا البقاء بالقلعة للدفاع عن مصالحهم خشية أن يتمكن منافسوهم من خلعهم والقفز على تخت الحكم، وكان من جراء هذا القرار ان قضى الطاعون على نصف من فضَّل البقاء بالقلعة تقريبا، فانخفض عدد المماليك بالقلعة من عشرة آلاف مملوك عام 1346 الى ما بين 5 او 6 آلاف وقت غزو الأتراك العثمانيين عام 1517.

العوام، وأولاد الناس

ومن خلال عدم وجود افتراض بمسئولية فئة ما من السكان في نقل العدوى، حيث كانت الثقافة السائدة بين المصريين (بوجه خاص العوام من الناس في المدن والفلاحين في القرى) تؤكد

الاعتقاد بأن "الجن" هو المسئول عن وجود الوباء وانتقاله من شخص إلى آخر، فلم يكن هناك داع ـ بناء على ذلك الاعتقاد ـ لوجود فكرة تقييد حركة البشر لإيقاف انتشار الوباء.

وعلى عكس ما كان سائدا بين العوام من الناس في المدن والفلاحين في القرى، فبين "أولاد الناس" (من تجار ومشايخ وموسرين) في القاهرة والمدن الأخرى، كان الاعتقاد السائد أن الوباء هو أمر مقدر من "الله جل وعلا" لا فكاك منه، وأن وفاة المؤمن بالطاعون يمهد له السبيل لدخول الجنة، وأن وفاة الكافر بنفس هذا الطاعون يذهب به إلى الجحيم.

وبناء على هذين الاعتقادين المتعاكسين فقد كانت النتيجة بالنسبة لسلوك المصريين تجاه وباء الطاعون واحدة، تستند إلى تفسير الإصابة بالوباء إلى قوى خارجية قاهرة (الجن، أو الله جل وعلا)، وهي قوى لا راد لقضائها ولا يمكن (وأحيانا لا يُحَّب) اتخاذ أية تدابير صحية تجاهها.

وعلى أية حال فإن المماليك (باعتبارهم حكام البلاد) لم يفكروا إطلاقا في اتخاذ تدابير صحية تجاه النوبات المتتالية لهجوم الوباء على البلاد. وبشكل عام لم تعرف البلاد في تلك الفترة أسلوب الحجر الصحي الذي بدأ في الظهور

تدريجيا بدول أوروبا المختلفة بشكل متفاوت. فقد برز في القرن السادس عشر "مفهوم النظام"، الذي برر التدخل في حياة الناس العاديين خلال أزمة الوباء، حيث ابتكر هذا النظام أولا في فلورنسا، وانتشر بالتدريج في فرنسا وإسبانيا، ثم امتد شمالا وغربا إلى انجلترا وسويسرا .

وجاء الفرنساوية بالأعاجيب

ظل سلوك المصريين على هذا الحال حتى مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر عام 1798، ولنتابع مع المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي ما كان في هذا الشأن، حيث يقول: "وفيه (شهر شوال سنة 1215 هـ، فبراير 1800 م) بدأ أمر الطاعون فانزعج الفرنساوية من ذلك، وجردوا مجالسهم من الفرش وكنسوها وغسلوها، وشرعوا في عمل كرنتيلات (جمع كرنتيلة، أو كرنتينة، وهو الحجر الصحي.. وأصلها انجليزي quarantine) وفي ثامنه (شهر شوال)، قال وكيل الديوان للمشايخ: إن حضرة ساري عسكر بعث إليَّ كتابا معناه إيضاح ما يتعلق بأمر الكرنتيلة، ويرى رأيكم في ذلك، وهل توافقون على رأي الفرنساوية أم تخالفون؟ فقالوا: حتى ننظر ما هو المقصود. فقال: حضرة أرباب الديوان يجب عليهم أن يعملوا الطريق الذي يكون سببا لانقطاع هذه

العلة، فإننـا نبغي لهم ولغيـرهم الخيـر، فإن أجابوا فذاك، وإلا فليُلزَموا ولو قهـــــــرا، وربما استعملنا القصاص ولو بالمــوت عند المخالفــة، فإن رأينا قد انعقد على ذلك ويجب أن يتفق معنا أرباب الديوان لأن حفظ الصحة واجب، ولذا نرى كثيرا من الناس، يستعمل الطبيب عند المــــــــــرض وغايته حفظ الصحة، وما نحن فيه من ذلك، ونذكر لكم أن بلاد المغـرب (يقصـد أوروبـا) قد اعتمدوا فعل الكرنتيلة الآن، فـأعلِموا أهـل القـاهرة بـأن لا يتـأخروا عـن اســتعمال الوســايط، اذ قــد رُبطــت الأســباب بالمسـببات. فقيـل لـه: ومـا الـذي تـأمرون بـه أن نفعل؟" واستمر الجدال والأخذ والرد بين المشايخ اعضاء الديوان من جانب ووكيل الديوان الذي يمثل ساري عسكر الفرنساوية من جانب آخـر، وانفـض المجلـس بعـد طلـب المشـايخ مـن الوكيـل أن يفاوض ساري عسكر حول تدبير طريقة يكون فيها الراحة للناس، فإن ما يطلبـه سـاري عسـكر فيـه مشقة على أهل البلد لعدم ألفتهم لهذه الأمور..

لــم يــتفهم المصــريون مــا كــان يطلبــه مــنهم الفرنسيون من أشياء بدت لهم غريبة غير مألوفة ومخالفة لمعتقداتهم الراسخة والمسـتقرة. كيـف يطلب منهم الفرنسيون ذلك؟

فكيف يتركون ذوي قرباهم بعيدا عـنهم فـي وقـت الشـدة والمرض؟

وكيــف لا يــدفنون موتــاهم بــالترب القريبــة مــن مساكنهم، ويدفنونهم بعيدا عنهم!!

كيف يقول الفرنسيون: "إن العفونة تنحبس بأغوار الأرض، فإذا دخل الشتا وبردت الأغــوار بســـريان النيل والأمطـــار والرطوبات، خرج ما كان منحبسا بـــالأرض من الأبخـــرة الفاسدة، فتعفن الهواء فيحصل الوبا والطاعون. "، ألـيس الوبـاء هـو مـس من الجن، أو قدر من الله جل وعلا. فما فائـدة إذن مـا يطلبـه هـؤلاء الفرنسـيس مـن "ضـرورة نشـر الثياب والأمتعـــة والفرش بالأســـطح عدة أيام، وتبخير البيوت بالبخورات المُذْهبة للعفونة"!!

وهل يفيد الأطباء في دفع مس الجـن أو مـا قـدره الله عز وجل؟ فمـا فائـدة قـولهم: "إن مرض مريض فلابد من الإخبـــار عنه، فيـــرسلون من جهتهم حكيمـــا للكشف عليه إن كان مرضه بالطاعون أو بغيره، ثم يرون رأيهم فيه"!!.

وكيف نسـمح لهـم دهـس بيوتنـا والإطـلاع علـى حرماتنا المصونة على هذا النحو. يقـول الجبرتـي: "..... ثــم نودي بنشـــر الحوايج وكتبوا بذلك أوراقا وألصقوها بالأسـواق، وشـددوا فـي ذلك بالتفتيش والنظر بجماعة من طرف مشايخ الحارات، ومع كل

منهم عسكري من طرف الفرنساوية، وامرأة أيضا للكشف عن أماكن النسا، فكان الناس يأنفون من ذلك ويستثقلونه ويستعظمونه وتحدثهم أوهامهم بأمور يتخيلونها كقولهم إنما يريدون بذلك الاطلاع على أماكن الناس ومتاعهم" .

هذا بعض مما استهجنه المصريون بشأن ما جاء به الفرنسيون من أعاجيب لم يألفوها.

المصادر:

شلدون واتس، الأوبئة والتاريخ، المرض والقوة والإمبريالية، ترجمة وتقديم أحمد محمود عبد الجواد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى ،2010.

عبد الرحمن الجبرتي، الجزء الرابع، عجائب الاثار في التراجم والاخبار، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013

ابن عروس..

بين الحقيقة والأسطورة

تضاربت الأقوال والآراء حول ابن عروس حتى يكاد المرء يفضل البقاء في المنطقة الرمادية بين الأسطورة والحقيقة، لا يستطيع أن يرجح أي الجانبين. صحيح، وأيهما خاطئ

فشخصية ابن عروس طُرحت حول حقيقة وجودها من عدمه علامات استفهام كثيرة، هل هو شخصية خيالية ابتدعها الخيال الشعبي، أم أنه شخصية حقيقية عاشت في العصر العثماني كما جاء في بعض الروايات؟، وحتى حول مكان مولده ونشأته تعددت الأقوال، ففي بعض الأقوال إنه تونسي وفي بعضها الآخر مغربي وفي معظمها هو مصري.

تقول الأسطورة إنه في قرية مزانة التابعة لمركز قوص بمحافظة قنا بصعيد مصر، ولد شاعر العامية وصاحب المربعات الشهير ابن عروس، ليمزج الشعر بالحكمة في فن مصري خالص هو "فن الواو"، بعد حياة حافلة بدأها لصاً وقاطع طريق، لينتهي شاعرا وفيلسوفا تتناقل الأجيال حِكَمَه في صورة أبيات رباعية الشطرات.

كما تقول الأسطورة أيضا، إنه لما بلغ الستين أحب فتاة دون الخامسة عشرة، ولما كان أهلها يخشون سطوته وافقوا على زواجه منها، لكن الفتاة هربت مع حبيبها قبيل الزفاف بساعات، ودار الخبر بين الناس، ودار صاحبنا في البلاد بعد انكساره ينشد حكمة تجربته بصوت متهدج، وصار اسمه "ابن عروس" لأن هذه "العروس" الهاربة هي التي أنجبته للحياة في ثوبه الجديد، ولعل المربع التالي يعبر عن هذه التجربة المريرة، حيث يقول:

يا قلبي لاكويك بالنار

وان كنت عاشق لا أريدك

يا قلبي حملتني العار

وتريد من لا يريدك

فن الواو

لا توجد أية مصادر موثقة أو مراجع تتناول سيرة ابن عروس باستفاضة، اللهم إلا نتفا متناثرة في صفحات كتب المتصوفين، وبعض صفحات قليلة من الكتب التي تتناول الأدب الشعبي بالدراسة، بالإضافة إلى كتيب لا تتعدى صفحاته عدة أوراق صغيرة دونت به بعض أشعاره التي تم تداولها

شفاهةً من جيل إلى جيل، و تغنى بها الكثير من المطربين..

وبحسب الدكتور/ إبراهيم أنيس، رائد الدراسات اللغوية، فان فن الواو هو عبارة عن رباعية تتكون من بيتين فقط من بحر المجتث (مُسْتَفْعِلُنْ فَاْعِلاتُنْ)، ويتكون كل مُربّع من أربع شطرات متبادلة القافية، أي أن للشطر الأول والثالث قافية موحدة، والثاني والرابع قافية أخرى موحدة.

أما سبب تسمية هذا النوع من المربعات الشعرية بفن الواو فيرجع، حسب إحدى الروايات، إلى أن الشاعر كان لا يكتفي بإلقاء مربع واحد على جمهوره، لكنه كان يصمت برهة حتى يتأكد من استيعاب المتلقي للمربع ثم يواصل بادئا بعبارة "وقال الشاعر"، وفي رواية أخرى حول سبب تسمية هذا اللون من الشعر بفن الواو، أنه كان شكل من المباراة الشعرية التي يشترك فيها شاعران، الشاعر الأول يقول مربعه فيرد عليه الثاني ويبدأ مُربعه بـ "وأزيدك"، ولهذا كثرت الواوات بين المربعات حتى أصبحت تسمى بفن الواو.

نماذج من مربعات ابن عروس

ولابد من يوم معلوم
تترد فيه المظالم
أبيض علي كل مظلوم
وأسود علي كل ظالم

من حبنا حبنا
وصار متاعنا متاعه
ومن كرهنا كرهناه
يحرم علينا اجتماعه

كيد النسا يشبه الكي
من مكرهم عُدت هارب
يتحزموا بالحنش حيّ
ويتعصبوا بالعقارب

أنا باوحّد اللي خلق الناس
خلق مِسلمين ونصارى
وناس نايمة على فرش وتّاس
وناس ع المعايش حيارى

أوعى تقول للنـدل يا عـم
وإن كان على السرج راكب
ولا حد خالى من الهم
حتى قلوع المـراكب

هل ابن عروس شخص حقيقي؟

معتمدا على مخطوط بدار الكتب المصرية بعنوان "ديوان ابـن عـروس"، وبحـث ميـداني مسـح فيـه عددا من الروايات الشفهية، حقق الكاتب مسعود شومان شخصية شاعر الـواو ومربعاتـه الشـعرية، في كتاب "مربعات ابن عروس". هذا الكتاب الـذي تناول فيه حظ الخيال والحقيقة من قصـة الشـاعر الصـعيدي، ونسـبة اللـبس بينـه وبـين المتصـوف التونسـي "ابـن عـروس" الملقـب بـأبي الصـرائر، والتي جعلت الشاعر الكبير الراحـل عبـد الـرحمن الأبنودي يجزم بأن ابـن عـروس محـض وهـم، وأن

أشـعاره إنمـا تنتمـي إلـي الشـاعر المغربـي عبدالرحمن المجدوب.

لكـن نقـادا وكُتابـا آخـرين يشـيرون إلـى الـروح الصعيدية فـي المُربعـات، وتشـابكها مـع الحكمـة المصرية في مربعات متعددة.

ويطلـق الكاتـب والروائـي الراحـل خيـري شـلبي على ابن عـروس: "ابـن عروسـنا"، إذ يؤكـد علـى مصـريته ويعتـز بهـا، ويـري أن أمثالـه يصلون عنـد الشـعوب البدائيـة إلـي مرتبـة الأنبيـاء أصـحاب العقائـد، لأنهـم يجـدون فـي أ شـعارهم الإجابـات الحكيمة لكل ما في صدورهم من تساؤلات.

ويري عبد الرحمن الابنودي في كتابه الـذي نشـر بعد وفاته بفترة قصيرة عن الهيئة المصرية العامـة للكتاب، أن ابن عروس ليس مصريا وليس شاعرا، بل ولم يكن موجودا في الأساس..

الخيال الشعبي يخلق أبطاله

وعلى أية حال، فان الجزم بوجود ابن عـروس مـن عدمـه مسـألة تكتنفهـا الكثيـر مـن الإشـكاليات، وليسـت بالمهمـة السـهلة علـى الإطـلاق، نظـرا لندرة المصـادر.. ولكـن الـذي يمكـن الجـزم بـه أن هناك مربعـات تنسـب إلـى شـخص يسـمى ابـن عروس، قد يكون شخصا حقيقيا عاش بصعيد مصر

فـي العصـر العثمـاني كمـا تـروي "الأسـاطير"، أو يكـون مـن وحـي الخيـال الشـعبي، ومـا أكثـر الشخصيات التـي نسـب إليهـا الخيـال الشـعبي، لـيس أقـوالا أو أشـعارا فحسـب، بـل نسـب إليهـا أفعـالا وأشـركها فـي أحـداث، كمـا حـوى الأدب الشعبي أيضا شخصيات من نسج الخيال يمثلـون أبطالا لقصص صاغها الخيـال الشـعبي واصبحت سيارة على ألسنة العامة، مثل علي بابـا البطـل الطيـب المحظـوظ، وعـلاء الـدين ومصـباحه السـحري، هـذه الشخصـيات نسـجها الخيـال الشعبي، ولم تكن موجودة يوما، ولا يمكـن إثبـات وجودها المادي فـي أي فتـرة مـن الفتـرات، فهـل يخبرنـا أحـد، علـى سـبيل المثـال، بمكـان وزمـان مولد أبطال القص الشعبي..

كل شخصيات ألف ليلة وليلـة، بمـا فيهـا شـهرزاد وشـهريار، هـي شخصـيات غيـر حقيقيـة، لكنهـا راسـخة فـي الوجـدان الشـعبي ولا يمكـن إنكـار وجودهـا، رغـم أنهـا شخصـيات لـم تكـن موجـودة أصـلا. وظلـت حكايـات "ألـف ليلـة وليلـة" تتناقلهـا الألسـن بشـكل شـفاهي، ولـم تـدون مكتوبـة إلا في وقت متأخر، مثلهـا مثـل كـل الأدب الشـعبي الشـفاهي الذي انتقل من جيل إلى جيـل، وكلمـا انتقل أضيف إليه أو سقط بعضه سهوا أو قصدا.

مربعات مصرية

أمـا فيمـا يتعلـق بمسـألة مصـرية مربعـات ابـن عروس، سواء كان هو ـ إن وجد ـ مصريا أم تونسيا أم مغربيا، فيكفي للتـدليل علـى مصـرية مربعـات ابن عروس، قراءة مربعاتـه لتكتشـف دون عنـاء أن مـن قـال هـذه المربعـات لا يمكـن إلا أن يكـون مصريا..

زمنا زمن الكلوبات

لمض الصفيح بطلوها

ياما ناس ما لهاش أبات

صبحت تحلف بابوها

سكت الهَوى والناموس طار

والسبع طاطا بعينه

خليه دا النومِ أستار

لما الكلب ياخد يومينه

صابونة العدو ما ترغيش
وان رغت ياللا السلامة
إن قعدت فى مطرح ما ترغيش
حتى تقوم بالسلامه

كل عيشك بملحك وفجلك
وعيش عيشة جدودك
واتمد على قد رجلك
بلا تزيد عن حدودك

ابن المقفع..

وكتاب كليلة ودمنة

قليل من الكتب نال من إقبال الناس وعنايتهم ما نال {كتاب كليلة ودمنة}، وهو ليس من الكتب الخفيفة، لأنه جاء على ألسنة الوحوش والطير.. بل هو من الكتب التي عنيت به واحتفت كل ثقافات ولغات العالم تقريبا.. وفي هذا يقول عميد الأدب العربي الدكتور/ "طه حسين": "لقد تنافست الأمم على اقتنائه، وحرصت كل امة على أن تنقله إلى لغتها، فليس في لغات العالم لغة إلا ترجم هذا الكتاب إليها... ففي هذا الكتاب حكمة الهند، وجهد الفرس، ولغة العرب. مما جعله جزءا من التراث الإنساني الخالد."

ما أصل كتاب كليلة ودمنة؟!

تعددت القصص ومن ثم الآراء حول أصل الكتاب، حتى إننا لا نستطيع أن نوقن أي هذه الآراء صوابا وأيها خطأ..

فبعض المؤرخين والباحثين قالوا إن كتاب كليلة ودمنة هندي، ترجم إلى اللغة الفارسية، ثم ترجمه "عبد الله بن المقفع" من الفارسية إلى العربية.... وقد أضاف "عبد الله بن المقفع" إلى أبواب الكتاب الأصلية بابا يصف فيه كيف نُقل

الكتاب من الهندية إلى الفارسية.. وهي حكاية "كسرى أنو شروان" و"برزويه"، ووضع هذا الباب في مقدمة الكتاب تحت اسم: {باب توجيه كسرى أنو شروان برزويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب}، وسنستعرض هذه القصة بالتفصيل لاحقا تخت عنوان: "عشب المحاياة"

وهناك على الطرف الآخر، من يرى من المؤرخين والباحثين أن "عبد الله بن المقفع" هو الذي وضع (ألَّفَ) هذا الكتاب، في القرن الثاني من الهجرة، التاسع من الميلاد.. وان هناك أسبابا وجيهة ـ من وجهة نظر هؤلاء الباحثين والمؤرخين ـ جعلت "ابن المقفع" يلجأ إلى الادعاء بان كليلة ودمنة كتاب هندي، نُقل عن طريق "برزويه الحكيم" إلى الفارسية، ومن ثم نقله هو إلى العربية.

على أية حال لكل رأي من الرأيين أدلته المستندة إلى حقائق وأدلة يرونها دامغة، ويدللون بها على وجهة نظرهم.. وفي الأجزاء التالية سنعرض لأدلة هؤلاء وأولئك... ولن نرجح من جانبنا أي من وجهتي النظر., وسنترك لكم الحكم لترون أيهما أقرب إلى الصواب من وجهة نظر كل منكم.

ولكن لننظر اولا في قصة نقل الكتاب من الهندية الى الفارسية على يد "برزويه الحكيم..

عـشــب المُـحَـايـاة !!

تقول الروايات إن أحـداث هـذه القصـة وقعـت فـي عهـد "كسـرى أنـو شـروان"، أفضـل ملـوك فـارس علما وحُكما ورأيا، وأكثرهم بحثا عن مكامن العلم والأدب. وقـد حكـم "كسـرى أنـو شـروان" بـلاد الفرس في القرن السادس الميلادي، حيـث مـات عام 574 ميلادية..

جاء "برزويه الحكيم" ـ الذي كان من رؤسـاء أطبـاء فـارس وكبيـر حكمائهـا ـ يومـا إلـى "أنـو شـروان" وقال: "أيها الملك إني قرأت فـي كتـاب هنـدي أن فـي جبـال الهنـد عشـبا إذا رُكّـب منـه دواء، فنُثـر على ميت ارتد حيا."

فلما سمع أنو شروان ذلك قال: "كيف يكون لـبلاد الهند ذلك دون فارس؟ لن أدع هذا العشـب إلا أن أحصـل عليـه مهمـا كلفنـي ذلـك مـن مشـقة ومخاطر."

ثم جهز "برزويه الحكيم" ليسـير إلـى الهنـد وقـال له: "اذهب واجلب لي هذا العشب، ولك في هذا مـن الأمـوال والهـدايا مـا يعينـك علـى اجتلابـه... وليكُن ذلك في سرٍّ مكتوم."

توجـه "برزويـه الحكـيم" إلـى بـلاد الهنـد، تنفيـذا لمشيئة "كسرى أنـو شـروان".. مـن اجـل إحضـار

ذلك العشب العجيب "الذي إذا نثر على الميت ارتد حيا!!".. حسبما تقول بذلك بعض الكتب الهندية..

وعندما وصل إلى الهند.. قابل ملكها، وأعطاه الهدايا التي جلبها معه من بلاد فارس.. فسر ملك الهند لذلك، وسأله عن سبب زيارته لبلاده.. فأخبره "برزويه الحكيم"، انه جاء ليبحث عن هذا العشب العجيب الذي قرأ عنه..

فأمر ملك الهند بجمع علمائه، وطلب منهم أن يبحثوا في الجبال عن هذا العشب... فأنتشر علماء الهند في الجبال بحثا عنه.. وجمعوا كل صنوف العشب الموجود بها.. وجربوها جميعا.. فما أحيا عشب منها ميتا!!...

فندم "برزويه الحكيم".. وتحير وظل يفكر... كيف سيعود إلى كسرى خالي الوفاض؟ وماذا سيقول له بعدما انفق كل هذه الأموال بلا طائل؟

ثم خطر له خاطر.. فسأل العلماء: "أتعرفون في الهند عالما أعلم منكم جميعا؟"

فقالوا: "نعم ، هناك عالم يفضلنا علما، ويكبرنا سنا.. لكنه يعتزل الناس بأحد الجبال البعيدة"

فقال لهم "برزويه الحكيم": "خذوني إليه.. فقد يكون عنده رد الجواب عما نسأل"....

اصطحب علماء الهند "برزويه الحكيم" إلى قمم أحد الجبال الشاهقة المنعزلة ببلاد الهند.. وعندما وصل إلى قمة الجبل، وجد هناك شيخا عجوزا يقيم وحيدا بخيمة قديمة متهالكة..

حياه علماء الهند، وقبّل كل عالم منهم جبينه، ثم جلسوا أمامه جميعا في أدب وخشوع التلاميذ أمام معلمهم..

وبادره "برزويه الحكيم" فسأله عما أتى بلاد الهند من اجله، قال: "أيها العالم الجليل، جئت بلادكم بحثا عن عشب بالجبال يقال انه إذا نثر على الميت ارتد حيا.. فهل لك علم بمثل هذا العشب العجيب؟"

قال له العالم: "أعرف هذا العشب"

سرت همهمة بين العلماء.. وقفز قلب "برزويه الحكيم" فرحا لدنوه من نوال مقصده.. وهتف بالعالم المعتزل: "دلني عليه أيها العالم الجليل"

قال العالم:

"أما الجبال التي بها هذا العشب ... فهي العلوم..

وأما الموتى ... فهم الجُهال..

وأما العشب.. فكتاب في خزائن ملك الهند يحيى موتى الجهل.. اسمه {حكايات كليلة ودمنة}."

بعد ان عرف "برزويه الحكيم"، ما المقصود بذلك العشب الذي يحي الموتى.. أسرع عائدا إلى ملك الهند فأخبره بما قاله العالم المعتزل في هذا الشأن.. ثم اخذ يرجوه أن يسمح له بالاطلاع على كتاب كليلة ودمنة.. فاغتم ملك الهند وقال: "ما طلب أحد هذا الطلب من قبل، ولكنا لا نضن على الملك أنو شروان بشيء"..

وأمر أن يؤتى بالكتاب، وان يطلع "برزويه الحكيم" عليه، ولكن بشرط أن يتعهد بعدم نسخه أو كتابة أية عبارة منه.. فتعهد برزويه بذلك.. وأمر الملك أن يلازمه عدد من العلماء حتى يضمن تنفيذ برزويه لما تعهد به...

أخذ "برزويه الحكيم" كتاب {حكايات كليلة ودمنة}، وبدأ في قراءته.. وظل على ذلك زمانا، يصل الليل بالنهار لا ينام في يومه إلا سويعات قليلة.. يقرأ الفصل من الكتاب مرة ومرات، حتى يحفظه عن ظهر قلب.. ثم ينتقل إلى الفصل التالي، حتى يحفظه عن ظهر قلب..

فلما فرغ من الكتاب.. أرسل إلى "كسرى أنوشروان"، يعلمه بما لقي من التعب والعناء،

وانه أنجز مهمته على خير وجه.. فأجابه كسرى يأمره بالعودة إليه ساعة يصل إليه رده.

فتجهز "برزويه الحكيم"، وخرج من بلاد الهند قاصدا بلاد فارس.. بعد أن شكر لملك الهند حسن استقباله وكرمه.

لما عاد "برزويه الحكيم" إلى بلاد فارس.. دخل على "كسرى أنوشروان"، وقدم له التحية الواجبة.. فلما رآه وقد شحب لونه، وتغيرت سحنته، وشاب رأسه، رق له وقال: "أبشر أيها الحكيم المطيع لمولاه، الناصح إلى ببشرى صالحة، فما صنعته يستوجب الشكر والتقدير منا ومن جميع الخاصة والعامة.. وسوف نجزيك بأفضل مما رجوت وأملت"..

وأمره أن ينصرف سبعة أيام ثم يأتيه بعد أن يكون قد دون ما حفظه من كتاب كليلة ودمنة.

فلما كان اليوم الثامن حضر "برزويه الحكيم" إلى مجلس كسرى.. فوجد عنده العلماء والأشراف من أهل المملكة.. فلما اكتمل الجمع، دعا كسرى كبير حجابه وأمره أن يقرأ الكتاب أمام الجميع...

فلما فرغ كبير الحجاب من قراءة الكتاب، وسمع العلماء ما فيه من العلم والأدب والأعاجيب

والحكم التي جاءت على ألسن الحيوان والطير، تعجبوا لذلك، وشكروا "برزويه الحكيم" على ما أتى به إليهم من الأدب والمعرفة.

ثم إن كسرى أمر بأن تفتح خزائن الذهب والفضة لـ"برزويه"، ودعاه لأن يأخذ منها ما أحب وشاء..

فماذا تظن كان رد "برزويه الحكيم"؟

وكم من الذهب والفضة أخذ، بعد أن أباح له كسرى أن يأخذ ما يشاء منها؟

عندما فتح "كسرى أنوشروان" خزائن المملكة أمام "برزويه الحكيم"، وأمره أن يأخذ منها ما شاء من الذهب والفضة.. قال لكسرى: "أطال الله عمر مولاي كسرى.. وإني إذ اشكر لكم يا مولاي حسن تقديركم، وسخاء عطائكم، فإني لا حاجة لي إلى شيء من ذلك.. لكنى أريد إن أسأل الملك حاجة يسيرة يكون لي فيها ذكر وفخر وحياة لي بعد مماتي"

فقال كسرى: "وما تلك الحاجة أيها الحكيم برزويه؟"

فرد برزويه قائلا: "إن رأى الملك أن يأمر بان يوضع لي في رأس هذا الكتاب بابا باسمي، يُذكر به شأني وفعلي ليكون لمن بعدى عبرة وتأديبا،

ويحيا به ذكري ما حييت، وبعد مماتي.. فإنه إن فعل ذلك شرفني وأحياني إلى الأبد."

يرفض إذن "برزويه الحكيم" كل كنوز "كسرى أنوشروان" ويطلب أن يُلحق بصدر كتاب كليلة ودمنة فصل يُذكر فيه ما قام به برزويه من مغامرات ومشقة، وما تعرض له من مخاطر، في سبيل نقل الكتاب من الهندية إلى الفارسية.

وهنا نجد في "باب برزويه الطبيب"، الذي كتبه وزير كسرى أنوشروان (حسب طلب برزويه)، ويبدأ الباب على النحو التالي... "قال بُزُرجِمِهر: إنَّ برزويه رأْس أطباء فارس، وهو الذي وَلِيَ انتساخ هذا الكتاب، وترجمه من كتب الهند، قال: إنَّ أبي كان من المقاتِلة، وكانت أمي من بنات عظماء الزمازِمة، وفقهائهم في دينهم".. ويستمر الباب في ذكر مآثر برزويه، وحسن خلقه، وطيب نسبه، وما يتحلى به من إقدام وطاعة لأولي الأمر في الحق... وغيرها من صفات محمودة.

وهذه القصة تدور حول أصل كتاب كليلة ودمنة، وقد تعددت القصص ومن ثم الآراء حول ذلك، حتى إننا لا نستطيع أن نوقن أي هذه الآراء صوابا وأيها خطأ.

هل كتاب "كليلة ودمنة" هندي؟

الـرأي الـذي يـرى أن كتـاب كليلـة ودمنـة أصـله هندي يستند إلى باب مقدمة الكتاب التي كتبها "علي بن الشاه الفارسـي"، الـواردة فـي نسـخة المطبعـة الأميريـة ببـولاق، القـاهرة – 1937 م... وفي هذه المقدمة يذكر، إن {كتاب كليلة ودمنـة} يعــود لأصــول هنديــة، وتمــت كتابتــه باللغــة السنســكريتية (الهنديــة) فــي القــرن الرابــع المـيلادي... فيـروي قصـة الفيلسـوف "بيـدبا" مـع ملكــه الهنــدي "دبشــليم"، والتــي تقــول إن "الإسكندر" عندما غزا الهند، عيَّن عليها ملكا مـن أتباعه، وواصل السير لاجتيـاح بلـدان أخـرى، لكـن أهل الهند بمجرد أن غادرهم "الاسـكندر"، خلعـوا ذلـك الحـاكم الأجنبـي، واختـاروا "دبشـليم" ملكـا عليهم، لكن الأخير غير سياسته بعد فترة قصيرة، وتحـول مـن ملـك عـادل إلـى طاغيـة، ممـا دفـع الفيلسوف "بيدبا" إلى تقديم النصح للملك، وبعـد أن استمع الملك إلـى كلامـه، غضـب وأمـر بقتلـه وصلبه، ثم خفـف الحكـم واكتفـى بحبسـه، وبعـد فترة أمر بإخراجه من السجن، وطلـب منـه إعـادة كلامـه عليـه. فقـام "بيـدبا" بـذلك، وكـان الملـك يستمع متأثرا، ووعده بأنه سيعمل بكلامه ثم أمـر بفك قيوده... هـذا الأمـر كـان بدايـة وضـع الكتـاب، حيــث طلــب "بيــدبا" الفيلســوف مــن الملــك

"دبشليم" أن يُدوَّن الكتاب ويُحفظ، فأجابه الملك إلى طلبه... وهنا كُتبت النسخة الهندية من كتاب كليلة ودمنة.

وبعد أن وضع "بيدبا" الكتاب ودونه باللغة الهندية (السنسكريتية)، تأتي مرحلة نقلة (ترجمته) إلى اللغة الفارسية (الفهلوية) على يد "برزويه"، فنجد في نسخة مكتبة المعارف المصرية سنة 1941 ـ التي قام عميد الأدب العربي الدكتور/ "طه حسين" بكتابة التصدير لها، وحققها وكتب مقدمتها الدكتور/ "عبد الوهاب عزام" ـ في هذه النسخة، يأتي بعد التصدير والمقدمة باب عرض الكتاب لعبد الله بن المقفع، يليه باب توجيه كسرى أنوشروان برزويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب، ثم باب برزويه الطبيب..... وبعد هذا الباب، تأتي أبواب الحكي في كتاب كليله ودمنة، وهي خمسة عشر بابا، أولها باب الأسد والثور، ويليه باب الفحص في أمر دمنة، ثم باب الحمامة المطوقة... وتتوالى أبواب الكتاب، لننتهي بباب الناسك والضيف.

وفي الباب الاخير الذي يُختتم به الكتاب، يلخص الفيلسوف "بيدبا" للملك "دبشليم" الغرض من كل ما رواه له من حكايات على مر خمسة عشر بابا، فيقول له:

"لقد شرحت لك الأمور ولخصت لك جواب ما سألتني عنه، واجتهدت لك في رأيي، ونظرت بمبلغ فطنتي في التماس قضاء حاجتك، فاقض حقّي بحسن النية منك بإعمال فكرك وعقلك فيما وصفت لك..... فمن تدبر هذا الكتاب بعقله، وعمل فيه بأصالة رأيه، ثم فكر فيه، كان قِمنًا (القمنُ: الخليق والجدير) للمراتب العظام والأمور الجسام، والله يوفقك أيها الملك ويصلح منك ما كان فاسدا".

هل ألَّف ابن المقفع حكايات كليلة ودمنه؟

هناك رأي آخر شكّك في ذلك كله ورأى بأن أصل الكتاب عربي، ومما يستند إليه أصحاب هذا الرأي الذي يقول بأن "ابن المقفع" هو من ألَّف كتاب كليلة ودمنة، أن النسخة العربية هي النسخة الوحيدة التي بقيت محفوظة، وذلك بخلاف النسختين الهندية والفارسية اللتين فقدتا، حيث لم يُوّفق الباحثون منذ عصر "ابن المقفّع" حتى اليوم في العثور على نسخةٍ واحدةٍ هنديةٍ من هذا الكتاب، ولا حتى على النسخة الفارسية التي تُرجمت في ذلك الوقت إلى العربية، مما يثير هنا بعض الأسئلة: هل ضاعت هذه النسخ الهندية والفارسية؟ ... وإذا كان "ابن المقفع" وجد نسخة منها ألا يستطيع غيره أن يجد مثلها؟.

ويرى أصحاب هـذا الـرأي، أن قصـة انتقـال الكتـاب من الهند إلى فارس، والقصص التـي رويـت علـى ألسـنة الحيوانات، كل هذا من وضـع "عبـد الله بـن المقفع" نفســه، ليبعـد التهمـة عنـه، كونـه خـاف على نفسه من الهـلاك. فقـد خـاف علـى نفسـه من القتل فكتبـه علـى ألسـنة الحيوانـات واختـرع قصة انتقاله من الهنـد إلـى فـارس ليبعـد التهمـة عنـه، فقـد كانـت الحيـاة السياسـية والاجتماعيـة في عصر الخليفة "المنصور" مشابهة لما روي عن الفيلسوف الهندي "بيدبا" مـع الملـك "دبشـليم"، فقد كان يُعرف عن "المنصور" قـوة بأسـه وشـدته على من يخالفه، فكان "ابن المقفع" بحاجة إلـى نصح الحاكم بشكل غير مباشر.

ومـن النسـخة العربيـة انتشـر الكتـاب إلـى الأدب العالمي، فالنسـخة العربيـة هـي النسـخة التـي ترجم عنها الكتاب إلى مختلف اللغات الأخرى.

وقد ذكر دكتور/ عبـد الوهـاب عـزام، فـي مقدمتـه التـي حقـق خلالهـا كتـاب كليلـة ودمنـة بشـكل تفصـيلي، أن الكتـاب "تنافسـت الأمـم ذات الآداب في الحصول عليه، وحرصت كل أمة أن تنقله إلى لغتها، فليس هناك لغة من لغات العـالم إلا تـرجم إليهـا..... فقـد تـرجم إلـى: السـريانية الحديثـة، واليونانيـــة، والفارســـية، والعبريـــة، واللاتينيـــة،

والاسـبانية، والانجليزيـة، والايطاليـة، والتركيـة، والألمانيـة، والدانمركيـة، والهولنديـة. وطُبعـت النسخة الألمانية من الكتـاب التـي تحمـل عنـوان كتاب الأمثال سنة 1483م، وهـو مـا جعـل الكتـاب واحـداً مـن أوائـل الكتـب التـي تمـت طباعتهـا بواسطة مطبعة جوتنبرج بعد الكتاب المقدس.

مـن الصـعب الانحيـاز إلـى أي مـن الـرأيين فيمـا يتعلق بأصل كتاب كليلة ودمنة، فنحن نعـرض كـلا الرأيين دون ترجيح أي منهمـا علـى الآخـر.. إلا أن ما يمكن أن نرجحه تماما وبلا أدني شـك، هـو أن مخاوف "عبد الله بن المقفع" من الهلاك علـى يـد "المنصور" كانت مشروعة تمامـا. ففـي عـام 142 هجرية أمر الخليفة العباسـي "أبو جعفر المنصـور" بقتله، وقد أُشيع أنه قُتل بسـبب اتهامه بالزندقـة، وهو اتهام باطل، ويمكن التدليل على بطلانه بكل سـهولة، إنمـا قتـل لسـبب يتعلـق بأنـه لـم يأخـذ حذره في مؤلف آخر له، ذلـك الحـذر الـذي توخـاه فـي كتـاب كليلـة ودمنـة. لكـن قصـة مقتـل ابـن المقفع، وأسباب مقتله، قصة أخرى.

أسد علي وفي الحروب نعامة

في قصة الحجاج، وغزالة الحرورية، وشبيب بن زيد الخارجي (لُقب بالخارجي لأنه كان من زعماء أحد فرق الخوارج)، الكثير من الخرافة والمبالغة، التي تجعل قصتهم أقرب الى الخيال الشعبي منها الى التأريخ..

الحجاج من أشهر الطغاة في التاريخ العربي، ويضرب بطغيانه وتجبره الأمثال، ورغم جبروته واستبداده، وقف خائفًا مرتعبًا أمام امرأة... اجل امرأة لكن بألف رجل ...

هذه المرأة هي "غزالة الحرورية.."

ولنبدأ الرواية من قصة غرق زوجها "شبيب بن زيد" في النهر..

تقول الأسطورة (التي تُروى عبر كتب التاريخ المعتبرة والمهيبة) إن "شبيب بن زيد الخارجي" عندما غرق في نهر دجلة، خرجت جثته إلى شاطئ النهر، فأمر الحجاج بن يوسف الثقفي بشق بطنه واستخراج قلبه..... فاستُخرج فإذا هو كالحجر إذا ضربت به الأرض نبا عنها، فشُق فإذا في داخله قلب صغير كالكرة، فشُق فوجدوا علقة

الـدم فـي داخلـه..."!!! (المسـعودي فـي "مـروج الذهب ومعادن الجوهر" وابن خلكان فـي "وفيـات الأعيان وأنباء أبناء الزمان")

إذن كان قلب شبيب الخـارجي عبـارة عـن قطعـة حجر إذا ضربت بالأرض قفزت إلـى أعلـى كـالكرة، فشـقوا قلبه فوجدوا داخله قلب صـغير..... وهكـذا إلى نهاية الأسطورة أو الخرافة.. ومن الجدير ذكره أن كتــب التــاريخ القديمــة حفلــت بــالكثير مــن الأساطير والخرافات، وهذه قضـية تسـتحق النظـر والدرس في حد ذاتها، وقد أولى لهـا ابـن خلـدون الكثير من الاهتمام في كتابه "تاريخ ابن خلدون."

لكـن مـا قصـة غـرق شـبيب الخـارجي فـي نهـر دجلة؟

وبالأحرى من هو شبيب الخارجي، وما دور زوجته "غزالة"، بطلة قصتنا؟

أما شبيب الخارجي فهـو مؤسـس فرقـة الخـوارج التـي اشـتهرت بأنهـا قـد أجـازت للمـرأة أن تكـون إماما، وذلك دون باقي فرق الخوارج، وباقي الفرق الإسـلامية الأخرى.. ولم تكن هناك فرقة إسـلامية خرجــت علــى الســلطة، واســتمرت بلعــب دور العنصر المزعج للسلطة في العصـر الأمـوي، مثـل

فرقة شبيب الخارجي، من حيث التمرد والتحدي لسلطة الخلافة الأموية،

استطاع شبيب بحنكته العسكرية وشجاعته ان يحقق العديد من الانتصارات رغم العدد القليل الذي واجه به الجيوش الأموية. ومما يميز فرقة شبيب بشكل خاص هو المشاركة الفاعلة للمرأة. فلم يكن شبيب وحده القائد لجماعته، بل كان هناك قائد أخر تغنى المؤرخون بشجاعته وفروسيته، ولم يكن هذا القائد الا "غزالة" زوجة شبيب نفسه..

غزالة تؤم المصلين بالمسجد الجامع

وظلّ جيش شبيب ومعه غزالة في حرب مع الحجّاج حتى هزموا له عشرين جيشًا في مدّة سنتين، وقد دخل شبيب الكوفة للمرّة الثانية على رأس ألف مقاتل ومعه غزالة على رأس مئتين من النساء، وقد تقلّدن السيوف وحملن الرماح، ووصلوا إلى المسجد الجامع بعدما قتلوا حرّاسه ومن كان فيه، وصعدت غزالة على المنبر، فخطبت فيمن حضر من المصلين، (ولعل هذه النادرة الوحيدة، التي تؤم فيه امرأة المصلين)..

حيث كانت غزالة نذرت أن تـدخل مسـجد الكوفـة فتصلي فيه ركعتين تقرأ فيها سـورتي البقـرة وآل عمـران، وهمـا أطـول سـورتين مـن سـور القـرآن الكريم، فجاءت إلـى الجـامع، فصلّت فيـه ركعتـين وخرجــت بعــد إن أوفــت نــذرها، وهــي محاطــة بمظاهر التقدير والاحترام..

وكانت غزالة تقود كتيبـة مـن النسـاء المسـلحات بالحراب والسيوف اللائـي أبلـين فـي القتـال بـلاء حسـنا، وكـان لهـن فضـل كبيـر فـي دحـر جـيش الحجاج بن يوسف الثقفي واقتحام الكوفة.

وقد استطاعت غزالة ان تفعل ما عجز عنـه أقـوى المتمـردين علـى السـلطة الأمويـة، وهـو تحـدي الحجاج بن يوسف الثقفي، فطلبته للتحدي وجهـا لوجـه فـي منازلـة بالسـيف، وكانـت كلمـا دخلـت غزالـة الكوفـة يهـرب إلـى دار الإمـارة خوفًـا مـن ملاقاتهـا، فقـال فيـه عمـران بـن حِطّـان، أبياتـه الشهيرة التي صارت مـع الأيـام مـثلاً حتـى يومنـا هذا:

أَسـدٌ عَـلَيَّ وَفـي الحُـروبِ نَـعـامَةٌ

رَبـداءُ* تـجـفـلُ مِن صَفيرِ الصافِرِ (ربداء: نعامة سـوداء مرقطة بالأحمر).

هَلّا بَرَزتَ إِلى غَزالَةَ في الوَغى

بَـل كـانَ قَـلبُـكَ في جَناحَي طائِرِ*

نهاية شبيب الخارجي وغرقه في النهر

تقول الروايات التاريخيـة، إن الحجـاج وجـه عشـرة من قادته لقتـال شـبيب، فكانـت الغلبـة لشـبيب، فهزمهم جميعاً، ولما أدرك عبـد الملـك بـن مـروان ان الحجاج لن يستطيع قهر شبيب وغزالة، أرسـل إليه بعسكر الشام لمؤازرتـه.. ولمـا وصـل عسـكر الشام، دارت معارك طاحنة بـين الجيشـين، وفـي نهايـة المطـاف أرسـل الحجـاج نحـو أربعـة آلاف جندي، فدخلوا من رواء جـيش شـبيب وبـاغتوهم واخترقوا صفوفهم، فقُتل أخو شبيب، وغزالة امرأة شـبيب، ففـرح بـذلك الحجـاج وأصـحابه وكبـروا، وانصـرف شـبيب وأصـحابه كـل مـنهم عـل فـرس، فأمر الحجاج أن ينطلقوا في طلـبهم، ولمـا وصـلوا عنـد نهـر دجلـة، وجـاء الليـل بظلامـه كفـوا عـن القتال.. فلما طلع الفجر عبر شبيب وأصحابه على

الجسر، فبينما شبيب في وسط الجسر راكبًا على حصانه اختل توازن الحصان فسقط شبيب في الماء وهو يرتدي آلة الحرب من حديد وترس، فقال له رجل: "أغرقًا يا أمير المؤمنين؟!" رد شبيب: "ذلك تقدير العزيز العليم، ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً..."

ثم انغمر في الماء فغرق. فلما تحققت الخوارج سقوطه في الماء كبروا وانصرفوا ذاهبين متفرقين في البلاد..

ضارب رمل يروي قصة طومان باي

حظيت الفترة ما بين أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن السادس عشر، بمجموعة من المؤرخين مثل ابن إياس، وابن طولون الدمشقي، كما يمكننا بسهولة أن نتعرف على أسماء عشرة مؤرخين كبار على الأقل عاشوا في تلك الفترة.

لكن حظيت القصة التي رواها "ابن زمبل الرمّال" عما كان من امر السلطان طومان باي وشنقه على باب زويلة، باهتمام الكثير من الباحثين، رغم ان ابن زمبل كان رمالا يضرب الرمل ويقرأ الطالع، ولم يكن قط مؤرخا، كان من آحاد الناس ولم يعرف عنه انه كان من مؤرخي الفترة، لذا جاءت روايته للأحداث التي عاصرها أقرب إلى الحكي الشعبي منها إلى التأريخ. فقد كان ابن زنبل شاهد عيان عاصر تلك الأحداث وحكى عنها..

يقول الدكتور عماد ابو غازي: "ومن بين هؤلاء الذين اتجهوا لكتابة التاريخ رمّال عاش في القرن السادس عشر، والرمّال أو ضارب الرمل هو قارئ للطالع أو للبخت عن طريق قراءة الرمل..... وكان اسم هذا الرمال أحمد بن علي المحلي، أي أن أصوله من المحلة، وقد اشتهر باسم ابن زنبل الرمال، وكانت مهنته الأساسية قراءة الطالع

لأمراء المماليك..... ومن سوء حظ ابن زنبل هذا أنه كان رمالا في جيش المماليك في الأيام الأخيرة لدولتهم، وكان شاهدا على هزيمة السلطان المملوكي قنصوه الغوري في موقعة مرج دابق بالقرب من مدينة حلب بشمال سوريا، ثم على هزيمة خلفه السلطان الأشرف طومان باي في موقعة الريدانية، بالقرب من الجبل الأحمر شرق القاهرة، ومقاومته للغزاة بعد ذلك لمدة ثلاثة شهور تقريبا، ثم إعدامه على باب زويلة. وإذا كان هذا من سوء حظه، فقد كان هذا من حسن حظنا، فقد دفعت الأحداث الجسام التي عاشها ابن زنبل الرمال به إلى التحول إلى مؤرخ لتلك الأحداث، فترك لنا حكاية تاريخية سجل فيها (واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني)، وهو الاسم الذي أطلقه ابن زنبل على كتابه، وإن كان قد اختار له عنوانا ثانيا (آخرة المماليك)، والكتاب هو العمل الوحيد الذي وصل إلينا منسوبا إلى أحمد بن زنبل الرمال".

قصة طومان باي كما رواها الرمّال

طومان باي هو آخر السلاطين الجراكسة، وهو السلطان الوحيد الذي مات مشنوقا على باب زويلة، إنه طومان باي الذى بدأت ملحمته بعد هزيمة السلطان قنصوه الغوري على يد السلطان العثماني سليم الأول في موقعة مرج دابق.. فعندما توجه قنصوه الغوري بجنده لملاقاة جيش العثمانيين، أصدر مرسوما بتعيين طومان باي نائبا للغيبة (أي يتولى إدارة شئون السلطنة في غياب الغوري). ونعلم أن الخيانة لعبت دورا مهما في هزيمة السلطان الغوري، فقد كان من رجاله المقربين خاير بك، وجان بردي الغزالي، الجاسوسان اللذان تحالفا سرا مع السلطان العثماني.

الجاسوسان

كان لخاير بك (قائد ميمنة جيش الغوري) دور مهم في مساعدة العثمانيين على غزو مصر، وسقوط دولة المماليك، فعندما قام السلطان الغوري بملاقاة العثمانيين في مرج دابق، أبدى المماليك شجاعة نادرة وكادوا أن ينهوا المعركة لصالحهم، حتى أن السلطان سليم الأول فكر في

الانسحاب، لولا أن حدث خلل كبير في جيش المماليك، حيث انسحب خاير بك بقواته وانضم إلى جيش العثمانيين، بعد أن أشاع هو ومماليكه أن السلطان الغوري قد قُتل، مما تسبب في انكسار جيش المماليك، وسقط السلطان الغوري صريعاً تحت سنابك الخيل، ولم يعثر له على أثر بعد ذلك. وكمكافأة له ولاّه السلطان سليم الأول حكم مصر بعد أن ضُمت إلى الدولة العثمانية، وقد سخرت منه بعض المصادر وسمته "خاين بك". وقد حكم مصر لمدة خمس سنوات وثلاثة شهور.

أما "جان بردي الغزالي"، وهو أحد الأمراء الذين فروا من "مرج دابق" وخان السلطان الغوري فعرض جنده للهزيمة دون أن يقاتل قتالا جديا، فبعد أن هزت أخبار انتصارات سليم الأول القاهرة، حيث كان طومان باي نائبا عن عمه السلطان قنصوه الغوري، ورأى أن يسرع بالزحف لمقاتلة العثمانيين بجنوب الشام، فأرسل حملة بقيادة جان بردى الغزالي لملاقاة العثمانيين في شمال غزة،. فخرج جان بردي على رأس الجيش المصري إلى غزة، وبمجرد أن تراءى له جيش السلطان سليم حتى أسلم له "جان بردي" جنده ورايته، وعاد إلى القاهرة مسرعا كأنه

منهزم أفلت من الموت، ودخل على السلطان طومان باي يصف له ما لقي من شدة بأس ابن عثمان وقوة عسكره. ففتح الغزالي الطريق أمام عسكر السلطان سليم الأول، وبذا وصلت جنود العثمانيين إلى غزة في طريقها إلى مصر، وكمكافأة له ولاّه السلطان سليم الأول حكم دمشق.

يقول ابن زنبل الرمّال في كتابه "آخرة المماليك": "وبعد أن فتح جان بردي الغزالي الطريق إلى القاهرة للسلطان سليم وجيشه، ظل سائرا حتى دخل "قطيا" (وهي مدينة في شبه جزيرة سيناء كانت الجيوش تتخذها نقطة ارتكاز وتموين)، فلم يجد بها أحدا من عسكر المماليك، فأقام بها ثلاثة أيام.،. ثم إن السلطان سليما أمر بإحضار خاير بك ووزرائه (وزراء السلطان سليم)، وقال: ما تقولون في حيلة يكون بها تفريق شمل الجراكسة؟ قالوا: وما هي؟.. قال: ائتوني بفلان الكاتب. وكان هذا الرجل يكتب بالسبعة أقلام، ويحاكي جميع الخطوط، فحضر، فقال له السلطان: أريد منك أن تكتب كتبا تحاكي فيها خطوطا مختلفة على لسان أمراء مصر، بأنهم معي في الباطن، ويحرضونني على المجيء إلى

مصر، ويكونون معي، ويساعدونني على طومان باي.”..

وبعد ذلك تولى خاير بك إرسال المكاتيب مع رجل من رجاله، فرماها بالقرب من مجلس السلطان طومان باي، فلما قرأ المكاتيب جمع الأمراء وأخبرهم بذلك، فأنكروا جميعا، فتحير طومان باي، وكاد العسكر أن يقتل بعضهم بعضا .

ويضيف ابن زنبل: “ونادى السلطان طومان باي في عسكره: كل من جاء برأس رومي له ما يريد من كل شيء، فساء ذلك جان بردي الغزالي. فلما دخل الليل دخل خيمته، وكتب كتابا، وختمه، وذكر فيه جميع ما فعله طومان باي، وأنه أخرج المدافع الكبار التي أودعوها في الجبل هناك، وجعل آلات الحرب في الريدانية، وقد أشرت عليهم بدفنها في الرمال، لئلا ينظرها أحد من الجواسيس فيخبرهم بذلك. فقبلوا مني ذلك بعد جهد عظيم مني، خشيت على عسكر السلطان من هذا البلاء العظيم، والصواب أن السلطان يدور ويأتي من جانب الجبل فيصيرون إذا رموا لا يفيد رميهم شيئا. وأرسل الكتاب إلى خاير بك. فأوصله إلى السلطان سليم. فسر بذلك، وأجزل عطاء القاصد به”.

وبطبيعة الحال انهزم طومان باي في معركة الريدانية، ولعبت الخيانة دورا مهما، فقد جاء عسكر سليم من جانب الجبل، وعندما ضرب عسكر طومان باي مدافعهم ذهبت إلى الفضاء الخالي. ويقول ابن زنبل: "أما السلطان طومان باي، فإنه لما رجع من الحرب لم يجد أحدا من عسكره إلا وقد ولى منهزما من كثرة البندق والضرب بالزانات.... فطلع من وراء القلعة، وقصد ناحية طرا، وتبعه بعض العسكر، سرية بعد سرية إلى أن سار معه سبعة آلاف فارس". وبعد أن اطمأن السلطان سليم، وأخبره خاير بك بما حصل، شكره السلطان على ما فعله من مساعدته لتمكينه ملك مصر، وبدأ في إرسال العسكر في اثر طومان باي بحثا عنه، فلم يجدوه ولم يجدوا بمصر جركسيا واحدا.

أما طومان باي فقد قرر العودة إلى مصر بمن معه من الجراكسة، وقوامهم سبعة آلاف جركسي، ليحاربوا عدوهم حتى يفنوهم عن آخرهم. نزل طومان باي عند جامع شيخون بشارع الصليبة، وتفرقت العساكر في الطرقات، فقتلوا من عساكر السلطان سليم نحو عشرة آلاف أو أكثر في ليلة واحدة. وفي الصباح جاءت عسكر الروم (عسكر

السـلطان سـليم) لملاقـاة عسـكر طومـان بـاي، فوقع بينهم القتال لمدة ثلاثة أيام، وفي كـل مـرة يرجع الـروم منهـزمين، حتـى يقـال إن الجراكسـة قتلوا من الروم أكثر من خمسة عشر ألفا.

ويمضي ابـن زنبـل الرمّـال فـي روايتـه عمـا جـرى فيقول: "فعند ذلـك اقتضـى رأي السـلطان سـليم أن يركـب هـو بنفسـه ويـأتي مـن جانـب القرافـة (المقابر الموجودة حول مسـجد الإمـام الشـافعي بالقاهرة)، ويلقى طومان باي، فإما له وإما عليـه، ونوى إن وقعت الكسرة عليه يرجع سائرا إلى بلاد الـروم. فلمـا فعـل ذلـك وجـاء برجالـه وزاد ضـرب البنادق على حـين غـرة، فلمـا سـمع الجراكسـة ذلـك هـرب غالـب العسـكر بعـد أن كـانوا غـالبين مستبشرين بالنصر".

استبسال ومقاومة حتى النهاية

قال ابن زنبل: "وأمـا طومـان بـاي فانـه لـم يهـرب، وحط عليهم حطة الأسد الغضبان، وقتل فيهم قتلا حتى كل سـاعده، ولكـن مـاذا يفعـل الواحـد فـي مائتي ألف وأكثر. ثم رجع، فلم ير خلفه أحـدا مـن عسـكره. وكـان قـد تواعـد مـع عسـكره أنهـم إن حصل لهم هزيمة يكون موعـدهم الجيـزة. فتوجـه

إليها هو وبقية مماليكه وبعض العساكر حتى صاروا نحو الألفين".

ويستمر ابن زنبل الرمال في سرد ما كان بين السلطان طومان باي والسلطان سليم الأول من معارك ومنازلات، وكيف ان طومان باي لم يستسلم وراح ينظم الصفوف، ويشرك أهل البلاد مع مماليكه في المعارك، حتى كاد أن يقتل السلطان سليم في إحدى الغارات في بولاق.

وقال ابن زنبل الرمال: "إن السلطان سليم كاد ينفلق قلبه من شدة الغيظ، وأرسل خلف خاير بك وقال له: لقد غررت بنا وأدخلتنا في بلاد هؤلاء، أنت أغررتني وطمعتني في اخذ هذا الإقليم، فانظر كيف تفعل ودبر نفسك، وإلا فهيا برأسك. والله لو سمعت قول وزيري بأن أنادي على عسكري بالرحيل، وارجع إلى بلادنا وأوطاننا، لكنك لأجل غرضك وكراهيتك لأبناء جنسك، جونتنا بين هؤلاء الملاعين، وأبعدتنا عن بلادنا".

ظل طومان باي يقاتل من حي إلى آخر، حتى المعركة الأخيرة بمنطقة وردان (إمبابة حاليا) حيث انكسرت شجاعة المقاومة أمام القوة الهائلة والعتاد الضخم. فلجأ طومان باي إلى شيخ

من العربان بالبحيرة، كان قد أطلق سراحه من السجن بعد توليه منصب نائب الغيبة، وهو الشيخ حسن بن مرعي، لكن هذا الشيخ غدر به وأبلغ عنه سليم الأول. فألقى العثمانيون القبض على طومان باي.

في يوم الاثنين الثالث عشر من أبريل سنة 1517 من الميلاد، تحرك موكب طومان باي المقاوم المهزوم للمرة الأخيرة من معسكر الغازي المنتصر سليم الأول بإمبابة، عابرا إلى بولاق مخترقا القاهرة، وانتهى الموكب الأخير لطومان باى عند باب زويلة، فشق شوارع المدينة من الشرق إلى الغرب، وهو يسلم على أهل القاهرة المصطفين على جانبي الطريق..

وننهي قصة طومان باي بما ذكره بن اياس عن واقعة شنقه على باب زويلة، فيقول: "عندما وصل، وقف على قدميه وقال للناس من حوله: اقرءوا سورة الفاتحة ثلاث مرات، وقرأ الناس معه، ثم قال للمشاعلي: اعمل شغلك، حيث شُنق هناك وسط صراخ الناس وعويلهم، فلما شُنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف. وظلت جثته معلقة على باب زويلة ثلاثة أيام. وكان له من العمر نحو

44 سـنة، ولـم يُشـنق ممـن حكـم مصـر ــ مـن الخلفاء والسلاطين ـ سلطان غيره". (ابن اياس)

المحتويات

تقديم: د. أحمد الخميسي 4

القسم الأول 7
بين التأريخ والخيال الشعبي
مقدمة القسم الأول 8
الانتصار بالحدوتة 12
سيرة أشطر الشطار علي الزيبق 15
شجر الدر .. امرأة على عرش مصر 19
شجر الدر في التاريخ الرسمي 20
شجرة الدر في الخيال الشعبي 25
تاريخ الرِشيد بين الحقيقة والخيال 31
الرشيد في التاريخ الرسمي 32
الرشيد في الخيال الشعبي 44

القسم الثاني 49
التأريخ بين الطرائف والأساطير
مقدمة القسم الثاني 50
عجائب الإسكندرية وطِلّسماتها 53
مس من الجن أم قدر الله 59
ابن عروس بين الحقيقة والأسطورة 67
ابن المقفع وكتاب كليلة ودمنة 76
أسد علي وفي الحروب نعامة 90
ضارب رمل يروي قصة طومان باي 96
قصة طومان باي كما رواها الرمّال 98

هذا الكتاب

يظهر لنا المؤلف عشقه لتاريخ مصر، وليس أي مصر، لكن مصر التي تكتب التاريخ بالخيال، والتي تنتصر على النصوص الرسمية بنصوص شعبية، وما تعقده من هالات المحبة حول رؤوس أبطالها. إنه تاريخ عكس التاريخ...
يطوف بنا الكاتب في تاريخ الشخصيات كما سجلتها الأوراق الرسمية، تاريخ الطغاة، وتاريخ البطولات الشعبية، وكيف انتصرت المخيلة الشعبية على الكذب بالخيال وبالمحبة التي طوقت بها رجالها...
لقد قام الخيال بحماية التاريخ وهو يضفي على أبطاله كل تلك الخصال والصفات ليرفعهم عاليا بعيدا عن حبر المستبدين وأوراقهم. سنقرأ في هذا الكتاب الممتع أيضا صفحات من حياة المستبدين...
وقد تخير طارق يوسف أن يعرض لكل ذلك من خلال المقارنة بين تاريخ تلك الشخصيات الرسمي، وسيرة تلك الشخصيات الشعبية.

د. أحمد الخميسي